محمد الغزالي

الطريق من هنا

دار الشروق

الطريق من هنا

الطبعـة الثانيـة

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

الطبعة الثالثـة

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

© دار الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا شروق - تلكس 93091 SHROK UN
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمـــــة

تخلّف العالم الإسلامي قضية معروفة وإن كانت مخجلة ! وهـذا التخلّف أطمع الأقوياء فيه ! بل قد طمع فيه من لا يحسن الدفاع عن نفسه ! وشر من ذلك أن هذا التخلّف ألصق بالإسلام تهما كثيرة ، بل إن عقائد خرافية فكرت في إقصائه ووضع اليد على أتباعه .. !

ولست أَلُومُ أحداً استهان بنا أو ساء ظنه بديننا مادمنا المسئولين الأوائل عن هذا البلاء ، ان القطيع السائب لابد أن تفترسه الذئاب .

وقد نهض كثيرون لمعالجة هذا الانحدار ، وإزاحة العوائق التى تمنع التجاوب بين الأمة ودينها أو إزالة الأسباب التي جعلت أمة كانت طليعة العالم ألف عام تتراجع هائمة على وجهها فى مؤخرة القافلة البشرية ...

ورأيت ناشدي الإصلاح فريقين ، فريقا يتجه إلى الحكم على أنه أداة سريعة لتغيير الأوضاع ، وفريقا يتجه إلى الجماهير يرى فى ترشيدها الخير كله ...

قلت فى نفسى : إن الذين يسعون إلى السلطة لتحقيق رسالة رفيعة لابد أن يكونوا من الصديقين والشهداء والصالحين أو من الحكماء المتجردين والفلاسفة المحلقين ! وأين هؤلاء وأولئك ؟ إنهم لم ينعدموا ولكنهم في الشرق الإسلامي عُمْلَة نادرة .

ومع ذلك ، فإن أي حكم رفيع القدر لن يبلغ غايته إلا إذا ظاهره شعب نفيس المعدن عالي الهمة !

إذن الشعوب هي الأصل، أو هي المرجع الأخير! وعلى بغاة الخير أن يختلطوا بالجماهير لا ليذوبوا فيها وإنما ليرفعوا مستواها ويفكّوا قيودها النفسية والفكرية، قيودها الموروثة أو التي أقبلت مع الاستعمار الحديث...

وجاء الاعتراض السريع: إن السلطات القائمة لن تأذن لهم بذلك فهذه السلطات ان لم تَوْجَلْ على منافعها وَجلَتْ من القوى الكبرى التي تملك زمام الأمور فى العالم الكبير، ومن ثمّ فسوف تُخرس الدعاة وأولي النُّهى...

ولم تخدعني هذه الحجة على وجاهتها الظاهرة، ولم أرها ذريعة للاشتباك مع الحاكمين، وأخذ الزمام من أيديهم بالقوة، فقد راقبت كثيرا من مراحل الصراع على السلطة ودرست ناسا نجحوا فى الوصول إلى المناصب الكبرى فلم أرهم صنعوا شيئا، بل لعلّهم زادوا الطين بِلّة..!.

إنني أناشد أولي الغيرة على الاسلام وأولي العزم من الدعاة أن يعيدوا النظر فى أساليب عرض الاسلام والدفاع عنه، وأن يبذلوا وسعهم فى تغيير الشعوب والأفكار، سائرين فى الطريق نفسه الذي سار فيه المرسلون من قبل...

والإسلام اليوم يعاني من أمرين: الأول تصوُّر مشوَّش يخلط بين الأصول والفروع، وبين التعاليم المعصومة والتطبيقات التى تحتمل الخطأ والصواب، وقد يتبنّى أحكاما وهمية ويدافع عنها دفاعه عن الوحي ذاته!!.

الثانى جماعات متربصة تقف بعيدا دون عمل، تنتظر بأعداء الله الويل والثبور وعظائم الأمور، وهي فى ميدان الدعوة الاسلامية بطالة مقنعة لأن المسلم سواء ملك سلطة رسمية أم لم يملك، إنسان

ناشط دؤوب لا ينقطع له عمل فى الشارع أو البيت أو المسجد أو الحقل أو المصنع أو الدكان أو المكتب...

وليس العمل المطلوب مضغ كلمات فارغة، أو مجادلات فقهية، أو خصومات تاريخية، إن العمل المطلوب أسمى من ذلك وأجدى!.

إننا نحن المسلمين انهزمنا فى ميادين كبيرة لا تحتاج إلى عصا السلطة، والمجتمع الذي يعجز عن محو تقاليد سيئة فى دنيا الأسرة لن يحقق نصراً فى دنيا السياسة وكيف ينفذ قوانين الشريعة من لم ينفذ قوانين الأخلاق؟.

ليس من الإسلام أن أضع قدما على أخرى ثم أرتقب من جنّ سليمان أن تضع بين يديَّ مقاليد الحكم..

إن الجهاد الاسلامي كدح مُضنٍ، في ميادين وعرة ذكرت نماذج لها في هذا الكتاب، وقد ساق الله الدولة للمسلمين الأوائل وهم مشغولون بالعمل له، وبناء مجتمع رباني خالص من الرذائل والمآرب، أي أن أولئك المسلمين عُرفوا بطراز معين من العقائد والعبادات والأخلاق، وطراز آخر من التفكير والتدبير والسلوك يشرفهم ويعلّي قدرهم، ولم يعرفوا بسلبية ولا أنانية ولم يُزْرِ بهم جمود ولا طيش..

أريد من المسلمين بين الأطلسى والهادي أن يبدأوا العمل لفورهم فى تلك الميادين المهجورة، وأن تتكوّن لهم أجهزة دوارة منتجة، وَلُوا الحكم أم لم يلوه!.

المهم أن أبذل وسعي، فإن وصلت إلى هدفي أو مت دونه لقيت الله ومعي عذري «فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون. أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون»[1].

---

(١) الآية: ٤١، ٤٢ من سورة الزخرف.

لقد خيل للبعض أنه يمكن السطو على الحكم بطريقة مّا ثم يتحول هذا السطو إلى وجود مشروع عندما يقيم هذا الحاكم بعض شرائع الحدود والقصاص! سيكون الحكم إسلاميا بهذه الحيلة الظريفة...

قلت لاحد المعجبين بهذه الطريقة، إن ذلك معناه أن اللص الكبير يقطع اللص الصغير، أو كما يقول الحسن البصرى: سارق السرّ يقطعه سارق العلانية!.

وقد كشف النبيُّ ﷺ فى سنته: أن هلاك الأمم من قبلنا إنما يجىء من هذا المسلك إذا سرق القوي تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد!.

إن الفرعنة مرفوضة قبل تولي المناصب أو بعد ذلك، ومن عجائب العالم الإسلامي وحده أن الحكم من طرق الثراء، وقد فكرت طويلا عندما قرأت أن الإسرائيليين أهدوا رئيستهم «جولدا مائير» مطبخا لمناسبة اعتزالها الحكم بعد سنين طويلة...

مطبخ؟ إنه هدية سارة لديها، قد تكون محتاجة إليه! أما بالنسبة لبعض موظفينا فهدية محقورة، فكيف إذا كان المطبخ هدية للرؤساء والملوك؟.

إن العقل الذي يفكر به الدعاة والمدعوون يجب تغييره، وأستطيع الجزم بأنه ليس عقلا إسلاميا.

فى هذا الكتاب صور قليلة لمفارقات بين واقعنا وديننا، فى الماضي والحاضر، أرجو أن تجد حظها من التدبر والوعى، فإن مستقبلنا منوط بهذه اليقظة.

محمد الغزالى

دَعَواتٌ
تَائِهَةٍ
فى
أُمَّةٍ
مُهَدَّدَةٍ
بالضِّيَاعِ

دَعواتٌ تَائِهــــةٌ

فى أُمَّـــــةٍ مُهـَـدَدَّةٍ بالضِّـيَاعِ

راقبت الأوضاع فى أقطار إفريقية الناطقة بالفرنسية والناطقة بالانكليزية، فعرفت كيف مكّن الاستعمار لنفسه، وكيف وفّر الضمانات لبقائه وان جَلَتْ جنوده عن الأرض!.

نعم قد تَخْلُو الأرض منه ولكن سكانها امتلأت نفوسهم به، وارتبطوا ماديا وأدبيا بمواريثه، فهم راكنون إليه معتمدون عليه!.

ماذا صنع الاستعمار لتحقيق هذه الغاية؟ لقد فرض أولا لغته وجعلها لغة المكاتبات فى الدواوين ، ولغة الدراسة فى جميع المراحل التعليمية، ولغة التخاطب المحترم فى البيوت والشوارع، وربما هادن اللهجات المحلية إلى حين، ولكنه يعلن مقته للغة العربية، ويتجاوزها في كل محفل، ويؤخر رجالها عن عمد! ولا سيما إذا كان المسلمون فوق تسعة أعشار السكان، ومن هنا كانت الفرنسية لغة السنغال، والانجليزية لغة نيجيريا، أما لغة القرآن فهى منبوذة أو مهملة!.

وقد نشأ عن ذلك أن المسلم فى هذه الأقطار محجوب عن التراث الاسلامى لأنه مدون باللغة العربية، وأنه إذا رأى أن يقرأ شيئا عن الإسلام فعن طريق الإفك الذى سطره المستشرقون والمبشرون بإحدى اللغتين العالميتين، الانكليزية أو الفرنسية..!! ويا ضيعة الأجيال الجديدة... !.

ومع حركة الافناء المرسوم للغة القرآن الكريم قامت حركة اقتصادية بارعة جعلت الانتاج صناعيا أو زراعيا فى أيدى السادة الأجانب، أو فى أيدى العناصر الموالية لهم فهم ملّاك الحقول وهم ملوك الصناعات التحويلية أو التجميعية، وهم مديرو المصارف والشركات...

قديما قال شوقى: «يا مال الدنيا أنت والناس حيث كنت».

وقد فقه المستعمرون هذه الحقيقة، فدسّوا أصابعهم في منابع الثروة ومصارفها وأشعروا أهل البلاد أن الرغيف الذي يأكلون، والثوب الذي يرتدون، والمرافق التى يستخدمون، في يد أولئك المستعمرين المهرة، وأن البعد عنهم طريق الضياع...

فإذا جَلَتْ الجيوش عن الأرض لأمر مَّا فلا تمرد هناك ولا تحرر، فأيدي المواطنين هي السفلى فى ارتقاب العطاء الذى لابد منه، وسادة الأمس بالقهر العسكري هم سادة اليوم بالتفوق الاقتصادى والحضارى، ولا معنى لاستعمال العصا إذا كانت الإيماءة بالعين أو الشفتين تكفي للخضوع..

على أن الأمر لا يحتاج إلى التلويح بالقوة فإن الشعوب المغلوبة تتبع غالبيها وتمشي وراءهم مسحورة، وتترك تقاليدها لتقاليدهم وأفكارها لأفكارهم.

ومع أن الاسلام هو الدين الأول فى أفريقية فإن الظروف التعيسة التي مرت بأمته في القرون الأخيرة أمكنت من خناقه، وأنزلت به هزائم موجعة، بل أطمعت الملل الخرافية في طيِّ راياته ومحو آثاره..

وهكذا مشى التبشير الصليبى فى ركاب الاستعمار المكتسح يريد أن يضرب الإسلام الضربة المميتة!.

وأحسَّ أهل الغيرة بخطورة المعركة ورأوا بعد سُبات طويل أن يتحركوا، فهل أحسنوا صُنْعاً، وهل وقفوا مؤامرات التبشير والاستعمار! وهل أغاثوا الشعوب الصارخة، أو داوَوْا عللها؟ لننظر ما هنالك!.

الثقافة الاسلامية فى اضمحلال! ولم لا إذا كانت الانكليزية أو الفرنسية اللغة الأولى للدولة والشعب؟ وربما كانت الأولى والأخيرة!.

الجماهير تعانى من الجهل والفقر. وهي تقبل العون من كل عارض له، ولو كان مقرونا بالكفر والفسوق..

التقاليد السائدة ما أنزل الله بها من سلطان، وربما كانت التقالد الغازية أبعد منها عن الخرافة وأجدى على الناس.

فهل اشتبك الدعاة الاسلاميون مع مصادر الداء، وبذروا بذور الاسلام الحق، وجاهدوا فى الميدان الوحيد الذي يتقرر فيه مصير هذا الدين؟.

اتصلت ببعضهم لأسمع منه ماذا سيصنع، ورأيت الاكتفاء بالسماع وعدم الخوض فى أي جدال..

قال داعية من رجال الجهاد الاسلامى: إن تعطيل الأحكام الشرعية سبب ما نزل بالأمة من بلاء ولابد من محاربة هذه الجاهلية، وإزالة الطواغيت التي تساند هذا الكفر...!.

وقال داعية من رجال السلفية: إن تأويل الآيات جعل القلوب تزيغ، ثم انضم إلى ذلك التقليد المذهبى، وهجر السنة المطهرة تمشيا مع آراء الرجال، وانتشار الطرق الصوفية، ولا تصلح الأمة ما بقي هذا الانحراف...

استمعت إلى كلام هذا وكلام ذاك، وأحسست أن القوم لن يكيدوا عدوا ولن يكسبوا معركة، إنهم لم يدرسوا الميدان الذي توجهوا إليه ولا الجحور التي تنطلق منها الأفاعى، إنهم كالطبيب الذي جاءه مُصاب في رأسه فصنع له جبيرة على قدمه!.

وأطرقت أفكر في عواقب هذا الجهاد الطائش، وقال لي صديق: ما ترى؟.

قلت: لن يمضى عام على تحرُّك هؤلاء حتى تشيع الحزازات فى البيوت والمساجد، وتدخل طوائف من الشباب السجون ويزداد الاستعمار والتبشير ضراوة ورسوخاً...

وصدق حَدْسي وليته ما صدق، ووجدتنى محاطا بقضايا ومشاكل تثير الغثيان..!.

أصحيح أن الأكل على المائدة حرام؟ ويجب أن نأكل على الأرض إقامة للسنة؟ قلت: ان الله أنزل مائدة على أصحاب عيسى، وما أظنه حظر على أصحاب محمد أن يأكلوا على مثلها – وكنت أضحك بمرارة – ثم قلتُ:

ترى هل تشترى المائدة من لندن أو باريس؟ أم أن الصناعة المحلية ارتقت عندكم؟.

وجاء آخر يسأل: هل فى ارتداء البدلة الفرنجية تشبُّه بالكفار يُلحقنا بهم؟.

قلت: التشبه المنكور يكون فى العقائد والخلال لا فى الملابس والنعال..

وحدث أن خطيبا على منبره قال لرجل دخل ليصلى الجمعة قم فصلِّ تحية المسجد! فقال الرجل نحن مالكية تبطل عندنا هذه الصلاة!! فقال الخطيب المفوَّه: أتترك محمداً وتتبع مالكا؟ وكانت فتنة مائجة قرَّت لها عين الاستعمار!.

وتدخلت لأوكد أن أئمة الفقه لا يُقدمون بين يدي الله ورسوله، وأن الاختلاف يكون فى تفسير ما ورد، أو في قيمة ثبوته، وما يفكر أحدهم أبداً في مخالفة رسول الله ﷺ...

وبلغنى أن أولياء فتاة ألْغَوا خِطبة شاب رفض إهداء أساور من ذهب لابنتهم، لأن ذلك فى نظره حرام..

وطرد شاب من الجامعة لأنه أصر على دخول المعهد بثوب لا يبلغ الكعبين .

وكانت الدعوة إلى الجهاد ، وإقامة حكم إسلامى غامضة ، لا تدري شيئا عن حقوق الشعوب ولا ضمانات الحرية ولا قيام أحزاب ولا حرية الانتخابات ..

وإذا كان المسلمون قد تراجعوا فى أنحاء العالم وسقطت دولتهم الكبرى في غير ميدان لمعاصٍ اجتماعية وسياسية اقترفوها وتوارثوها فإن الدعاة الجدد لم يكلفوا أنفسهم دراسة خطأ ولا تصحيح مفهوم .

ولذلك كثر صياحهم وقلّت جدواه ، واضطرب الفكر الاسلاميّ في درك هابط لا يثمر خيراً في دين أو دنيا ...

والواقع أن الاستعمار الصليبي جلا من تلقاء نفسه عن أقطار إسلامية وغير اسلامية دون قتال ولا تضحيات لأنه كان شديد الوثوق من أن هذه الأقطار ستظل ذيولا له ، تستمدّ منه وتعتمد عليه ..

إن الأبصار الكليلة لا تدرك الأوضاع التى تفرض التبعية وتجعل أمة وراء أمة ، ويداً تحت يد ... ! .

إن الأبصار الكليلة لا تدرك الدعائم التى تقوم بها الرسالات ، وتستقر بها السياسات ، ولا تعرف قيمة الاستبحار الثقافى أو الازدهار الحضارى والصناعي في نصرة الحق وإعزاز أهله وفرض أخلاقه وأهدافه ..

ولنتدبر هذا المثال لما يقع بعيدا عن أرضنا ومجتمعنا ...

من بضع سنين أعلنت حالة الطوارىء في الولايات المتحدة ، وسيطر الانتباه على أعصاب الناس وأفكارهم ! ماذا حدث ؟ أإنذار بهجوم ذرّي ؟ أم إعصار بحري من تلك الأعاصير التي تخلف وراءها الدمار ؟ لا هذا ولا ذاك الذي حدث أن أولى الأمر كانوا مسترسلين فى الإيمان بعظمة أمريكا وسبقها البعيد ، ثم اكتشفوا بغتة أن الاتحاد السوفيتى قد سبقهم ، وخلّفهم وراءه فى ميادين علمية كثيرة ! .

وصدر الأمر بإنعام النظر فى برامج التعليم كلها، ومراجعة كل شيء من المرحلة الأولى إلى درجات التخصص، وانشغلت الحكومة والشعب بهذه الكارثة، وضرورة السعي الحثيث لطيّ مسافة التخلف وإعادة التفوّق القديم...

ولم يمكث القوم غير بعيد حتى حققوا ما أرادوا، وهم الآن في إتمام تجاربهم لما يسمّى بحرب الكواكب، سيقول الناس: عبقرية علمية جديرة بالاعجاب وهذا صحيح! والأجدر بالإعجاب عندي هو الشعور بحدّة المنافسة ووجوب السبق.

إذا كانت القدرة العلمية تستدعي الثناء، فإن الأحوال النفسية المصاحبة من اعتراف بالقصور وشحذ للهمة واعتداد بالنفس وحرص على النجاح كل ذلك لا يجوز إهماله!.

ترى ما هي طبيعة هذه الأمة؟ أتظن نفسها ممثلة العالم الحرّ فلا يسوغ أن يهزمها القابعون وراء الستار الحديدى؟ ربما، أتظن نفسها على نصيب من الإيمان بالله وكتابه المقدس فلا يجوز أن يهزمهم الملاحدة؟ ربما، أم هي كبرياء الثروة والسلطة والنصر المتتابع؟ ربما، قد يكون ذلك كله أو بعضه وراء مكانة الصدارة التي نالها شعب الولايات المتحدة..

على أننا لا ننسى، ومن الخساسة أن ننسى، أن هؤلاء الأميركيين قتلوا نصف مليون ياباني لإثبات وجودهم، وأنهم من الناحية الدينية رصدوا قناطير مقنطرة لنشر الصليبية، وقناطير مثلها لدعم اليهودية، ومحو فلسطين!! لقد عادَوْا الإسلام بغير وعي!.

وها هم أولاء يسيرون نحو أهدافهم بالتفوّق العلمي في البر والبحر والجو، فماذا نسير نحن إلى أهدافنا؟ وإذا أعلنا حالة طوارىء لاستدراك ما فاتنا فما هو التغيير الذي نحدثه حتى يتغير ما بنا؟ مصداق قوله تعالى: ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾(1).

---

(1) سورة الرعد: الآية 11.

إن طلاب العلم فى مدارسنا وجامعاتنا يحفظون إلى حين بعض المذكرات والملخصات حتى إذا جاء الامتحان قاءوها على أوراق الإجابة، ثم انقطعت صلتهم بالعلم..

وهناك رجال رزقوا لذة المعرفة وبرّزوا في العلوم التى درسوها حتى بلغوا القمم، ويحزننا أن جمهورا من هؤلاء التحق بأوربا وأمريكا مؤجرا علمه لمن يقدرونه ماديا وأدبيا.

وهذا بلاء عظيم وخسار فادح، ووددت لو عالجنا هذا المسلك برشد وتؤدة، فإن ضياع ثروتنا البشرية أهم من ضياع الثروات الأخرى...

لكنى لا أترك قضية اليقظة النفسية والفكرية دون أن أبين خطرها على حاضر الإيمان ومستقبله، ذلك أن الطفولة العقلية السائدة بين متحدثين إسلاميين يُخشى منها على أمتنا، بل يجب أن نعلم أنه لا مستقبل لنا ما بقى هذا الاسترخاء الفكرى والخلقي يصبغ شؤوننا.

إن العمل الصالح ذكر فى القرآن الكريم ضميمة لابدّ منها مع الإيمان كي يفلح المرء في دنياه وآخرته، فما هذا العمل الذي تكرر ذكره أكثر من سبعين مرة؟.

بعض الناس يتصور أن العمل المنشود هو العبادات المرسومة المأنوسة لا يعدوها إلى غيرها! وإذا كان هناك توسّع فى الدلالة فإن دائرة الصالحات تشمل شئوون الدنيا عندما تصحبها النية الحسنة، وهذا التوسع وصف لبعض الخاصة من أهل الدين..

وأحسب الأمر يحتاج إلى إيضاح وتدقيق، فإن كلمة «الصالحات» تتسم بالشمول الذي يتناول كل شيء، ويستوعب كل مسلك، ويستوي فيه ما حدد الشارع كيفيته وهيئته، وما تركه لاختلاف الأزمنة والأمكنة تباشره النفس الانسانية لتضع عليه بصماتها المؤمنة وتسوق به الحياة إلى الهدف الذي تشاء..

بعض الناس إذا ذكرت النقود، ذكر الدينار والدرهم أو الدو والجنيه، وإذا ذكر الدين ذكر الصلاة والصيام وما يدري شيئا عما وراءهما.

واقتصار التدين على نوعين أو أكثر من الطاعات المأثورة إزراء بحقيقة الدين، وطمس لرسالته وآثاره، واعطاء الشيطان مساحات رحبة يجري فيها كيف يشاء..

تلوت سورة القصص، وربطت آخرها بأولها، فرأيت أن الله سبحانه شرح أحوال الاستبداد السياسي والطغيان الاقتصادي في قصتيّ فرعون وقارون ثم ساق هذا القانون الحضاري الصارم **﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين﴾**(١).

إنه بعد عشر صفحات من السرد التاريخي الحافل قرر هذه الخلاصة أن الاستعلاء والفساد يستحيل أن يأتيا بخير، كل فرد مزهوٌّ بنفسه فوضوي في سلوكه سائب فى إدارته ظالم لغيره ناسٍ لربه لابد أن يجني الويل من هذه الخلال.

إن عناصر العدل السياسي والاجتماعي من صميم الأعمال الصالحة، ولن ينزل الوحي ليعلم المدير كيف يدير، أو المدرس كيف يعلّم، أو الصانع كيف يبدع أو السائق كيف يحترم الطريق فذلك كله تهتدي إليه الفطرة المؤمنة، وتندفع إليه بالذكاء الطبيعي، ومن ثم اقترن الإيمان والعمل الصالح..

هذا العمل الصالح تنداح دائرته لتشمل الدنيا كلها، وحرية الحركة فيه مطلقة ما تستثنى منه إلا المأثورات التي جمّد الشارع قالبها عندما قال مثلا «صلوا كما رأيتموني أصلّي...»

---

(١) الآية: ٨٣ من سورة القصص.

وهذه المأثورات القولية والعملية قليلة، ووقتها محدد.. أما بقية الأعمال الصالحة فلا تكاد تحصر، إنها الحياة كلها، وحسب المسلم في شرح موقفه منها أن يتدبر الآية الكريمة **﴿قُل إن صلاتي ونسكي ومحياى ومماتي لله رب العالمين﴾**[1].

وهناك ملحظ مهمٌّ فقد يعتري العبادات المقررة ما يطيح بثمرتها ويبطل جدواها، وذلك عندما تتحول إلى عادات بدنية تؤدَّى خلال غيبوبة عقلية، والحق أنه لا خير فى قراءة بلا وعي، ولا في ركوع بلا خشوع.

ومع أن الصلاة عمل من قمم الشرف الانساني فإنها آخر ما ينحلّ من عرى الاسلام والسبب هو هبوطها عن درجة مناجاة الله إلى أقوال وأفعال ميتة لا تؤكد يقينا ولا تؤسس خلقا.

وعندما تنحط العبادات إلى هذا المستوى فإن أعمالا مدنية أخرى تشتد فيها حرارة الإخلاص ويتألق فيها حسن القصد تكون أرجح عند الله، وأجدى على الحياة من هذه العبادات العليلة.

وأكره أن أوازن بين عبادات معتلة، وعادات رفيعة، لأن العصر الذي نحيا فيه واهي الصلة بالله، وما أيسر أن يزهد مغرور في تنفيذ أوامر الله بدعوى أنه يقوم بأعمال صالحة أخرى..

وإنما أبحثُ لنفسى أن أكتب ما كتبت زجرا للمؤمنين الكسالى أن يسيئوا إلى الطاعات بجفافهم الروحى، وخوائهم العقلي، وتحويلهم معالم التقوى إلى عالم من الأشباح ويختفي إذا جدّ الجدّ.

وأدهى من ذلك أن يتشبثوا ببعض الأعمال ويهملوا بعضا آخر.

---

(١) الآية: ١٦٢ من سورة الأنعام.

إنه لو قضى عمره قائما إلى جوار الكعبة، ذاهلا عما يتطلبه مستقبل الاسلام من جهاد علمي واقتصادي وعسكري، ما أغناه ذلك شيئا عند الله .. إن بناء المصانع يعدل بناء المساجد! فحراسة الحق كتعليمه.

وإقامة سياج حوله، أياً كان هذا السياج لا يقل عن الاعتناء بنصوصه.

المسلم مكلف بإصلاح كل عمل، أو عمل كل صالح، وهذا الانشطار المعيب في السلوك البشري مرض طرأ على أمتنا من انحراف القرون لا من تعاليم الإسلام ﴿**من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**﴾[1].

وأول ما أصاب النفس الإنسانية من عطب توهمها أن الصالحات لا تعدو رسوم العبادات المروية فإذا أحرز المرء نصيبا منها وأراد المزيد كرر الصلاة وكرر القراءة، لأنه لا يعرف صالحات غير ذلك.

وما درى أن ميدان الصالحات يستوعب حركاته وسكناته كلها، ويحوّلها إلى قوى تدعم الخير لأن الصلاح تغيرٌ نفسي شامل يفرض على صاحبه حب الكمال والرغبة في الاحسان، فهو يتقلب فى الدنيا كما وصف الله ﴿**ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور**﴾[2].

إن الشلل الذي أصاب أيدي المؤمنين في ساحات الإنتاج، وحجب عيونهم عن الملاحظة الذكية، وجعلهم يُجار عليهم ولا يجيرون، ويؤخذ منهم ولا يعطون، ويتقدم غيرهم ويتأخرون .. إن هذا كله حطّ قدرهم وقدر الدين معهم!!.

---

(١) الآية: ٩٧ من سورة النحل (٢) الآية: ٢٢ من سورة لقمان.

وقد رأينا الولايات المتحدة تعلن حالة الطوارىء لأنها توهمت الروس سبقوها فى بعض آفاق المعرفة، وصرخت أجهزتها الرسمية والشعبية منذرة بالويل إذا لم يقع تغيير عام.

فهل أعلنّا أيّ حالة من حالات الاستنفار والتفزيع بعدما تدحرجنا إلي العالم الثالث، واقعا مُرًّا لا خيالا طائفا!!.

والغريب أن الذين استيقظوا أو زعموا ذلك لم يقطعوا القيود التي جمّدتْ المواهب، ولم يشخصوا العلل التي أعجزت الأمة، بل سلكوا طرائق هازلة، فمنهم من تخصص فى محاربة الفقه المذهبي فى الوضوء والصلاة، ومنهم من جدد الحرب على الجهمية والأشاعرة، ومنهم من ذهل عن أصول الحكم وقواعد السياسة الراشدة وتخصص في طلب بعض الأحكام الفرعية، ومنهم من عاد إلى التصوف غارقا في وحدة الوجود، ومنهم ومنهم.

والأمر يحتاج إلى فهم صافٍ صادق لما يتطلبه الإسلام في الميادين التي انهزم فيها المسلمون روحيا وحضاريا، وكيف نلحق من سبقنا، ونربو عليه بما لدينا.. ولنبدأ بميدان العلم بعد هذا التمهيد الطويل... فإن أنكى ما أصابنا جاءنا من الجهل الكثيف بشئوون الدنيا والدين، أو بحقائق الأرض والسماء...

★ ★ ★ ★ ★

لماذا
جفت
ينابيع
هذا
العلم؟

لمـــاذا جفت ينابيع هـــذا العـلم؟

هذه طرفة جديرة بالتسجيل والتأمل نقدمها بين يدي بحثنا!.

في جامعة تونس أستاذ فرنسي كان يدرس علم الضوء أو البصريات كما يسمّى فى ثقافتنا القديمة، وكان الاستاذ معجبا كل الإعجاب بقانون «الهازان» الذي اكتشفه أحد علماء العصور الوسطى، وسبق به سبقا بعيداً، وفتح به فتحاً جديداً...

وسأله الطلاب: لكن من «الهازان» هذا؟ فقال: أظنه من كبار العلماء الإسبان!.

وذهب الطلاب إلى الدكتور بشير التركي – وعنه نقلنا هذه الطرفة – فأجاب الرجل وهو دهش «الهازان» هذا هو الحسن بن الهيثم العالم العربي المسلم الشهير، وهو راسخ في علم البصريات، وله نظرات يضارع بها أعظم علماء عصرنا، ولا تقلّ مكانته عن آنشتين وأمثاله، لأن العلم مازال ينهل من كشوفه وأحكامه، وقد يبقى العالم معتمدا عليه ألف سنة أخرى، وهو من أول الأساتذة الذين درسوا فى الجامع الأزهر... قال الدكتور بشير: وأما قانونا الضوء المنسوبان إلى ديكارت فحسن بن الهيثم هو صاحبهما، وواضعهما قبل ديكارت بستة قرون، وكتابه علم المناظير لا يزال مرجعا في موضوعه...

وذهب الطلاب إلى الاستاذ الفرنسي بهذه الإجابة فلم ينطق بكلمة، وكل ما حدث منه أنه أضرب إضرابا تاما عن الإشارة من قريب أو بعيد إلى «قانون الهازان» هذا، فما ذكره بخير ولا شر..

وظاهر أن الأستاذ قد بوغت بعظمة عالم مسلم وهو يمقت الإسلام من الأعماق فلاذ بالصمت، وطوى القصة كلها...

على أنني عدت إلى نفسي وإلى قومي أوجه اللوم بعد اللوم، وأتساءل بغيظ: فما مكانة الحسن بن الهيثم فى تاريخنا؟ وما مكانة غيره من علماء الحياة والكون كجابر بن حيان والخوارزمي.

إننا قبل أعدائنا كنا أسرع إلى إهالة التراب عليهم، ربما ظفر بالشهرة أبو نواس قديما وعبد الحليم حافظ حديثا، أما الراسخون فى العلم فهم يسيرون إلى جوانب الجدران، وينسحبون من الحياة كما جاءوها على استحياء، أو في استخفاء...

ولنترك الآن أنواع العلوم التى انشغل المسلمون بها، والتى ظنوها للأسف هي العلم الجدير بالتحصيل والتفرغ، ولننظر: ماذا كسبنا من قلة الدراية بالعلوم المادية والرياضية والكونية والصناعية وغيرها؟ وأين استقرت بنا النوى بعد رحلة في العلوم النظرية والقضايا الترفيهية استغرقت عدة قرون؟؟.

ذكرت في مكان آخر خبر رحلتى إلى عاصمة «موريتانيا» الإسلامية، وكيف أن بعثة صينية شيوعية هي التي اكتشفت المياه الجوفية التي تغذيها الآن! ناس يأتون من آخر الدنيا شرقا إلى شاطىء الأطلسي غربا لهم خبرة فى علم المياه تتيح للعطاش أن يرتووا وهم في بيوتهم، وأن يرتفقوا كيف شاءوا بالسائل القريب البعيد، تُرى أين كنا وماذا نصنع؟.

وما يقال في الماء يقال في النفط، ويقال في كل المواد المدفونة تحت الثرى أو المهملة فوقه.

أليست هذه كلها مما يدخل فى نطاق التوجيه القرآنى: **﴿أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء﴾** (١)

أليست هذه شيئا ينظر فيه؟ وتلتمس الحكمة من وجوده؟ وتدرك عظمة الله من خلقه؟ لماذا يكون بصر الآخرين إليها حديدا وبصرنا إليها بليدا؟؟ وما ثمرة ذلك التوقف الأخرق؟.

---

(١) الآية: ١٨٥ من سورة الأعراف.

إن الله جعل معرفته والحفاظ على حقوقه مربوطين بدراسة الكون، والتمكن فيه فإذا كنا خفافا في هذه الدراسة، أو كنا ذيولا لغيرنا فهل نحن بهذه الخفة عارفون بالله، قادرون على صيانة حرماته؟؟.

يقول الله عن الناس: **﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾**(١)

فأي تناقض مذهل إذا مشى الكافرون بين مخلوقات الله وهم يَسْبرون أغوارها ويعرفون أسرارها ويجيدون استخدامها، ومشى المؤمنون بين هذه المخلوقات لا يكادون يفقهون حديثا أو يحسنون صنعاً؟ كل ما يجيدونه هو الحوقلة والتواكل! فإذا بدا طمع شخصي طاروا إليه بسرعة البرق... .

ويقول الله فى آياته الدالة عليه، المتجدد منها والموجود الآن! **﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾**(٢) فتسأل من الذي رأى الآيات السابقة ثم رأى الآيات اللاحقة، إن أولي الألباب يرصدون الزمان ويعرفون ما يكون وما كان، وتتحرك أفكارهم وأحكامهم مع اختلاف الليل والنهار..

وقد رمقت بأسى سدنة الالحاد وسدنة الشرك ولمحت نشاطهم الذهنى والبدني في غزو الفضاء ثم عدتُ إلى قومي فجفَّ حلقي وخرس صوتي: أين هذه العلوم بيننا، وما الذي أبعدها عنا..

قد يقول البعض: الدين تعريف بالله وتبصير بحقوقه فلماذا تذهب بنا بعيداً؟ والجواب السريع: إن القرآن لما عرّفنا بالله عرض علينا ملكوته، ولفتنا إلى أرضه وسمائه، والواقع أن أحسن تعريف بعظمة الله أن نعرف العالم الذي أقامنا الله فيه، وجعل رسالتنا في نطاقه..

---

(١) الآية: ٢ من سورة التغابن.

(٢) الآية: ٥٣ من سورة فصلت.

قرأت أن المخّ البشري يزن كيلو جرام وربعا، وأن به عشرة مليارات من الخلايا، لكلّ خلية غذاؤها وبقاؤها وأجزاؤها ونماؤها أو فناؤها، قلت: وفي الأرض نحو خمسة مليارات من البشر! مَنْ القائم على إيجاد وإمداد كل خلية من هذه الخلايا، وتوجيهها لتؤدي وظيفتها الدقيقة، مَنْ؟ وهتفت: **﴿سبح اسم ربك الأعلى، الذي خلق فسوّى، والذي قدّر فهدى﴾**[1].

إن شعرة واحدة من مائة ألف شعرة تنمو على بشرة إنسان أو حيوان تفتقر إلى العناية التى تفتقر إليها كل شجرة تنبت على ظهر الأرض بين خط الاستواء والقطبين..

ولا أفيض في حديث أنا فيه قاصر، فقيام الأشياء بربها ما ندري عنه إلا قطرة من بحر، وأظن ما وصل إليه العلم في نصف القرن الأخير يساوي أو يربو على كل ما حققه العلم في القرون الأولى..

والمهم هو المنهج الذي اختاره العلماء للكشف والبحث.. والمسلمون الأوائل عرفوا ثلاثة مناهج، ذهب أجداها وأدناها إلى المنطق القرآني وبقي اثنان خيرهما قليل وعناؤهما ثقيل، ولهما بالقرآن الكريمة علاقة ما، وإن كانت علاقة يطول فيها الأخذ والرد.

ذهب المنهج الذي سلكه ابن الهيثم في البصريات والخوارزمي في الرياضيات، وغيرهما من الرواد أصحاب الفطر السليمة، وبقي منهج احتضنه علماء الكلام، وآخر احتضنه علماء التصوف، وكلاهما له أنصاره وثماره وما نحب الجور ولا المغالاة ولا انتقاص الكبار، ما نحب الا إنصاف ديننا وتبرئته من عيوب هو منها بريء...

أنا ممن يرون أن ابن سينا الطبيب أذكى من ابن سينا الفيلسوف، وقد انتفع الأوربيون بطبه خلال ثلاثة قرون، فماذا أفدنا نحن من فلسفته؟ تسلية ذهنية ذكية عقيمة!!.

---

(١) الآية: ١ – ٣ من سورة الأعلى.

وأنا ممن يرون أن الفارابي الموسيقي أذكى من الفارابي المعلم الثاني ! قد تكون ألحانه الشجيّة مسعدة للناس بعض الوقت، أما خرافة العقول والأفلاك التى أعجب بها مع ما أعجب من فلسفة اليونان فهراء ما كان يليق بالعقل الإسلامي أن يتورط فيه، أو يقف بإزائه..

إن العقل الاسلامي لو التزم الخط القرآني المشغول بالملاحظة والتجارب المهتم بالتنقيب والحقائق، الجوّاب في آفاق الأرض والسماء لكان له شأن آخر، ولقدّم نجدات صادقة مثمرة للمنهج العلمي الكوني الباحث في المادة لا فيما وراءها...

ونظرة سريعة إلى المنهج العاطفي الصوفي الذي أيده الغزالى بحرارة ومشت فيه جماهير المسلمين بإخلاص، بيد أني – قبل إلقاء هذه النظرة – أريد توكيد حقيقة جليلة ! أن العلم بالله أشرف ألوان العلوم، وأن المعارف الأخرى إن لم تكن وسيلة إليه فلا خير فيها.

إن المرء يفقد قيمته الأدبية والمادية يوم يكون نابغة في فنٍّ ما أو في الفنون كلها ثم هو بالله جاهل وعليه جريء.

والعباقرة الذين يضعون أصابعهم على زناد التفجير الذرى، وينذرون بإهلاك الألوف المؤلفة لغرض خسيس ليسوا الا قطعانا من الذئاب الكاسرة أهانوا العلم ولم يكرمهم العلم !!.

نحن نحترم علوم الكون والحياة، ونرى أنفسنا – باسم الله – مطالبين بافتتاح مغاليقها والتبريز فيها وذلك كله نابع من إعزازنا لربنا وحفاوتنا بصنعه، وتلبيتنا لطلبه أن نفكر ونستنتج..!.

والذي يدرس الكون بغير هذه النية كالذي يدرس قصراً مشيدا ليسرقه، أو سيارة جميلة ليفرَّ بها.

بعد توكيد هذه الحقيقة أعود إلى المنهج الصوفي القائم على التأمل الباطني، والاستغراق الذاتي، وتحويل العلاقة بالله إلى ذكر لأسمائه الحسنى يُحْصَى بالألوف المؤلفة، فإذا سكت اللسان تَلَفَّتَ القلب، وأشرقت البصيرة...

ليس هذا النهج ما أفدناه من كتاب الله وسنة الرسول، بل أجْزم بأن العزلة الفكرية عن الكون انحراف عن الخط الإسلامي، وفرار من تكاليف اليقظة الذهنية التي فرضها علينا القرآن، بل قد تكون طريق العجز عن مقاومة الباطل ومؤازرة الحق..

ثم إني أرتاب فى أنّ ترداد الألفاظ المفردة أو الكلمات المركبة يورث علما عظيما أو يرفع صاحبه إلى مستوى عال من شهود المجد الآلهي، وقد يكون هذا الأثر الجليل عقب قراءة كتاب في الطب أو في الفلك أو في أفق من آفاق الكون الكبير...

إن أولي العلم هم الخبراء بالله، الشائمون لأنوار وجوده، المراقبون لقيامه على خلقه..

وأبو حامد الغزالي له سهم كبير في الدراسات الطبيعية والمادية، وقد وصف عجائب الخلق وصف رجل مُطّلع، بل إن وصفه للعين البشرية يقترب من العلم الحديث، ولعل ذلك هو الذي أعانه في خلوته أو آنسه في عزلته...

وعلى أية حال فنهج القرآن لا يتقدمه نهج أحد، ويستحيل أن يحمي المسلمون دينهم، وأن ينضج إيمانهم بربهم إلا إذا تفقهوا في آيات الله العيانية والبيانية جميعاً، وازدهرت لهم حضارة مدنية وعسكرية تغلِب ولا تُغلب وتقود ولا تُقاد!.

هل لنا نصيب من العلم نقطع به هذا المشوار الطويل؟ تلفّتُّ حولي ثم أطرقت واجما! إن النصيب الذي لدينا هو ما يرميه خصومنا إلينا فنحن عَلى فضولهم العلمية نعيش!.

لقد استعدنا سيناء على النحو الذي عرف الناس، فما استطعنا إلى الآن أن نبني قرية مثل «ياميت» نستنبت البقول والورود في الهواء ونصدر نتاجها إلى أوربا، والعلم الذي فقدناه هو الذي فقده الجزائريون لما هبطت محاصيل الحبوب بعد الاستقلال، وهو الذي

فقده السودانيون الذين يجوعون فوق أخصب أرض، وهو الذي فقده المسلمون على التعميم لما مشوا تحت الشمس وعلى أبصارهم غشاوة.

ألا يضحك الشيطان طويلا عندما يرى جهازا علميا ضخما عند الملاحدة الذين يرفضون عقيدة الألوهية، وجهازا علميا ضخما عند المشركين الذين يجعلون الآلهة مثنى وثلاث ورباع! فإذا جاء أرض الاسلام لم ير إلا علما مستوردا من هنا ومن هناك، لأنه لا منابع له فى أرضه..!!.

وقد حرص الأوربيون والأمريكيون على أن يظل هذا العلم منقولا لا معقولا، مجلوبا لا أصيلا، مشترى لا مكتسبا حتى نظل فقراء إليهم أبدا، ما نستطيع من قيودهم فكاكا..

يقول الدكتور بشير التركي: في العهود الأولى للإسلام أقام المسلمون صناعات جديدة عديدة في ميادين شتى، فبعد أن أخذوا كل ما وصلت إليه الحضارات السابقة أبدعوا من جهودهم ما أربي عليها وصهروا ذلك في صناعة متطورة كانت دعامة مكينة لليقظة الإسلامية التي شملت العالم أجمع، بل كانت طوراً عظيما في الارتقاء العالمي.

ثم سرعان ما تدهورت هذه الصناعة الإسلامية، وصارت أثرا بعد عين، وربما رأى الناس بقايا منها في الصناعات التقليدية التي يرأها السائحون الأجانب..

أما الغرب فقد احتكر لنفسه في العصور الأخيرة كل الصناعات التي تقوم على الطاقة، وربما كان قليل الاكتراث ببعض الصناعات التجميعية والتحويلية الموجّهة للاستهلاك! أما الصناعات الكبيرة فقد أحكم قبضته عليها واحتفظ بأصولها لديه، إنه يبيع المحرك مثلا، ولا يبيع كيفية صنعه، ولا أسرار تكوينه وحفظه وإدارته، ومن ثم يبقي المسيطر على سوق المحركات، يبيع فيها قطع الغيار ووسائل الصيانة ومختلف الخدمات، وهذا كله في جميع الميادين المدنية والعسكرية...

إي أننا نركب سيارة أنتجها هو، ويظل ارتفاقنا بها ما بقي يرسل قطع الغيار ويضمن وسائل الصيانة.

وكذلك قد نقاتل في دبابة أو طائرة من صنعه، لكن قدرتنا على القتال مرهونة بتعهده أن يمدنا... !!.

وفي ميدان الإعلام ترى كل أجهزة الإرسال والاستقبال، السلكية واللاسلكية والمواصلات، وتخزين المعلومات واستخدامها والآلات الحاسبة.. الخ. كل ذلك حكر للغرب وحده، تأخذ منه بقدر ما يأذن، فإذا طردك عن بابه بقيت صفر اليدين.

أين الصحوة الإسلامية في مظاهر هذا العوز؟ أين العلم الذي يسعفنا ويقيم لنا صناعة مستقلة !؟ أين العلم الذي يصون عقائدنا وآدابنا ويجعل يدنا العليا؟ أين العلم الذي يُحكم علاقتنا بكتابنا وينقلنا إلى جوّه الممدود بين الأرض والسماء؟ أين العلم الذي يقدرنا على أن نثير الأرض ونعمرها كما أثارها وعمرها غيرنا، بل أكثر منه؟.

إن العلم الذي يوحي به الدين عند جمهور المسلمين، شيء آخر قريب من الموت والاستسلام والضياع، وذلك هو ذل الأبد..!.

وليتأمل القارىء المسلم في هذه القصة التي تحوي ما وقع بين الولايات المتحدة واليابان عقب انهزام الأخيرة في الحرب العالمية الثانية، لقد قرر الأمريكيون أن يضعوا أيديهم على الخبرة اليابانية في عالم الالكترونيات، وأن يوجهوا النشاط الياباني إلى إنتاج أجهزة الإعلام السمعية والبصرية لتباع، بأرخص الأسعار على حين يستبقون الأجهزة الدقيقة الأخرى، والخبرة العميقة بها حكرا عليهم وحدهم، كأجهزة الرادار، والحاسبات الألكترونية والكمبيوتر، ومالا نعلم من أدوات عسكرية (!).

غير أن العلماء اليابانيين فطنوا إلى الخطة الاستعمارية الماكرة، وقرروا نقل هذه الصناعة الرفيعة من طور الاستهلاك العادي إلى طور آخر أرقى وأذكى، وأن يُحكموا قبضتهم القومية على جملة هذه العلوم.

ونجحت المشيئة اليابانية، ولم تعقها الهزيمة العسكرية الهائلة دون الانطلاق إلى الغاية المنشودة، وأمست اليابان البلاد الألكترونية الأولى في العالم كله.

والعجب أن المركز الألكتروني الأمريكي «سليكون فالي» الذي كانت الولايات المتحدة تريده مَهْدَ هذه الصناعة للقرن الحادي والعشرين أضحى متخلفا عن المؤسسات اليابانية المعاصرة، لقد سبق اليابانيون سبقا بعيدا، واعترف لهم نظراؤهم وأعداؤهم بالتفوق، ذلك لأنهم ثابروا وصابروا حتى حققوا ما شاءوا...!.

هل نحس أن الذكاء الياباني وحده وراء هذا النجاح الرائع...؟ كلا! إن الاستقرار النفسي والاجتماعي في طول البلاد وعرضها كان نعم العون في ذلك المضمار، كأن الحكومة جسد روحه الشعب، أو كأن الشعب جسد روحه الحكومة، لا انشطار في عزم، ولا اختلاف على هدف، ولا تحاقد على منصب!.

أما اليقظة التي عاصرت الصحوة اليابانية في العالم الاسلامي فقد تبدّدت قواها في الصراع الداخلى، وذهبت جهود هائلة في الدفاع والهجوم والأخذ والرد والإقرار والإنكار، إذ إن حكومات كثيرة كانت تريد نظاما علمانيا، وترفض استدامة الفكر الإسلامي، وكانت الشعوب وجِلَةً من هذه الطلائع المتمردة على عقائدها وتقاليدها، ووقعت الأمة المسكينة بين «كماليين» يمقتون الإسلام، وإسلاميين يخلطون الوحي بالخرافة والجد بالهزل، وعندما يقع بأس الأمة بينها فهيهات أن تفلح في جلب منفعة أو دفع مضرّة..

إن اليابانيين لم يخاصموا دينهم — على ما به — ووجهوا قدراتهم كلها لكسب معركة الحياة، فكسبوها، أما المسلمون فقد استمكنت

منهم الدسائس الصليبية والصهيونية، وكان التدين في أفكارهم ومسالكهم قد ابْتُلِيَ بِالْعَفَنِ فغشيهم من العدوّ ما غشيهم!.

ويشاء الله أن أشعر بالقَهْر وأنا أخطّ هذهِ السطور، لأن الإذاعات المحلية والعالمية تنقل إليَّ ما يقع الآن قريبا مني في تونس، إن الذي وقع لم يخطر ببال وكان صداه لاذعا موجعا..

لقد استطاع اليهود الجاثمون على صدر فلسطين أن يرسلوا من مكان احتلالهم ثلة من الطائرات المقاتلة، قطعت آلاف الأميال في الجو، وأُمِدَّت بالوقود وهي سابحة في السماء، حتى إذا بلغت تونس تَعرَّفت على مقر هيئة التحرير الفلسطينية وسط آلاف البيوت، ثم شرعت ترجمه وما حوله بالقذائف حتى أحالته أنقاضا!!.

وبعد أن قامت بما تشاء على خير وجه عادت أدراجها إلى فلسطين قاطعة آلافا أخرى من الأميال بعد نزهة لطيفة قتلت فيها نحو سبعين عربيا، وجرحت مثلهم، هذا كل ما حدث!!.

ولم أشغل نفسي بسماع التعليقات الماجنة والغثة من الأصدقاء والأعداء.

فإن عجزنا لا يحتاج إلى عزاء، وقدرة خصمنا لا يغضّ منها تهوين، واحتقار مجلس الأمن العالمي لقضايانا لا ينجح فيه تستّر.

وظاهر أن رسوخ عدوّنا في علوم الكون والحياة جعله يطوي المسافات الشاسعة، ويلطمنا كلما أحبّ، إن ضراوته بنا كضراوة الصائد الذي يطلق بندقيته على أسراب الطير والأنعام لينال منها ما يشتهي!.

أما نحن فقد جعلنا الجهل نماذج للعجز، نُظلم فلا نقتصّ ونضام فنستكين.

ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذلّان غَيْر الحيّ والوتد!
هذا على الخسف مربوط بِرُمَّتِهِ وذا يُشَقُّ فلا يرثي له أحد!

هل نعود إلى بنياننا الحضاري لنعيد إليه رسوخه وشموخه بالعلم الحق والدراسة الناضرة؟.

إن لغتنا العربية تكاد تكون خالية من علوم الطب والصيدلة والأحياء وأغلب فروع الهندسة والكيمياء وعلوم الفضاء، والآليات والأليكترونيات، وفنون القتال في البر والبحر والجو.

أفبهذا الفراغ نحمي دنيانا ونحرس إيماننا ونرد أعداءنا ونصون حمانا؟؟.

سمعت من إذاعة لندن خبرا بعثني على الدهشة، فقد تمخّضت الانتخابات التي وقعت أخيرا في ولاية «أثام» عن سقوط الحكومة، ومجيء حكومة أخرى!.

الحكومة الجديدة أعضاؤها من طلبة الجامعات!! والحكومة التي ذهبت كانت من حزب المؤتمر الهندي الذي يتولى الأمور في عموم الهند..

وما حدث يدل بداهة على نزاهة الانتخابات، وعلى استقرار «الديمقراطية» في القارة الهندية، ولكنه يدل في الوقت نفسه على أن الجماهير تقترف الغرائب! والأمر يحتاج إلى شرح يسير..

إن هذه الولاية تجاور «بنجلاديش» الإسلامية، ويفر إليها باستمرار أعداد من المسلمين الذين تطاردهم الفيضانات والعواصف وأنواع المصائب، وما يكاد هؤلاء المنكوبون يستقرون ويجدون لهم مرتزقا حتى يهجم عليهم أهل الولاية الأصليون ويديرون عليهم رحى الموت، فإذا المذابح تفتك بالشيوخ والأطفال، وتملأ البيوت بالثكل واليتم..

وكانت حكومة الولاية تحاول اعتبار أولئك اللاجئين هنودا عادوا إلى بلادهم وتبذل بعض الجهد لتخفيف أحزانهم، بيد أن الجماهير الحانقة على المسلمين رفضت هذا المنطق وأبت إلا الفتك بهم وشن حرب استئصال عليهم..

الحق أن الاستعمار الصليبي الذي استقر في الهند عدة قرون نجح في زرع البغضاء للإسلام وأهله، وجعل القومية الهندية تنظر إلى الاسلام على أنه دين فاتح غريب.

وقد استمات الانجليز في ترجيح كفة الوثنية على عقيدة التوحيد، واستغلوا الاضمحلال الفكري الذي أصاب المسلمين في تاريخهم الأخير.. فأفقدوهم مكانتهم الوطيدة في الهند الكبرى.

وعند تقسيم الهند فقد المسلمون مليون قتيل على الأقل.

واليوم انتخبت الجماهير في «أثام» حكومة من الطلاب الشبان، وإني أضع رأسي بين يديّ أفكر فيما تأتي به الأيام، وما قد يجدُّ من مذابح تجتاح بقية البائسين دون عائق!.

على أنه يبقى السؤال الذي لابد منه: لماذا لا يصلح المسلمون أحوالهم في بنجلاديش ويستغنوا عن الرحلات المشئومة إلى أرض المذابح والضغائن؟ لماذا لا يتغلبونَ على العواصف والأنواء كما تغلب عليها غيرهم؟ إن الله سخّر الأرض للبشر، ولم يسخّر البشر للأرض!.

إن الله مكّن بني آدم من البر والبحر ولم يمكن البر والبحر من بني آدم! إننا نسينا رسالتنا من حيث إننا مسلمون، ونسينا مكانتنا من حيث إننا بشر متميزون على شتى الأحياء!.

ما هذا التحجرُّ الفكري، والعجز الإنساني؟ لماذا لا نبني سدودا تنكسر عندها الأمواج، وتزدهر الأرض وراءها بأنواع الزرع؟ هكذا فعل غيرنا فما الذي يغلّ أيدينا.

كتب الأستاذ محمد المجذوب هذه الكلمات النفيسة الصادقة تحت عنوان «**أما لمآسي بنغلادش آخِر؟!**» يقولُ: من غرائب الاتفاق أن أستمع في يوم واحد إلى هذين الخبرين:

١ – لقد تعاون مدّ البحر وهبوب الأعاصير على بنغلادش فقضى على الآلاف من سكانها..

٢ – في سجون بريطانية مجموعة من المجرمين ضاقوا بأوقاتهم، فرأوا أن يشغلوها بعمل نافع، فقاموا بردم جانب من شاطىء البحر فأحالوه أرضا صالحة للزراعة بلغت مساحة غير يسيرة، وهم الآن يطالبون المسؤولين بأن يقسموا هذه الأرض بينهم ليتخذوا منها وسيلة إلى العمل الجادّ والاستقرار الذي يغير تاريخهم..

ووجدتني أطرق بإزاء هذين الخبرين مفكرا متأملا، وقد شدّني اليهما معا ما تراءى لي من الصلة بينهما، ففي بنغلاديش الفقيرة المهددة دائما وأبدا بكارثة المدّ الذي يغتال مساكن الناس، ويجرف المئات والآلاف منهم بين الحين والحين، تكاد تنحصر المشكلة في ضيق الأرض التي شاء الله أن تكون أكثر مناطق العالم اكتظاظا بالسكان، ثم بانخفاض مستوى شواطئها إلى الحد الذي يجعلها معرضة لغارات البحر المدمرة كلما تفاعلت أمواجه بالمد والجزر، وتحت ضغط هذا الواقع يضطر هؤلاء المنكوبون للتسلل إلى ما يجاورهم من أراضي الهند، فيتلقاهم التعصب الهندوسي بأصناف الفواجع التي ليس أقلها الموت بإحراقهم مع منازلهم.. وفي حين أنهم يتوقعون هذا المصير الحتم لا يجدون مفرا من اللجوء إلى ذلك الجانب من الهند بعد أن شحّت عليهم أرضهم بالقوت الذي يمسك الرمق..

ولم يعد وضع هؤلاء المسلمين المرزّئين مما يمكن تجاهله بعد أن شهد ويشهد به كل الزائرين الذين ابتعثوا من دول الخليج للتعليم في بنغلادش، حيث يرون تزاحم المتسوّلين حيث اتجهوا، وحتى أن الواحد من هؤلاء المحرومين ليعتبر القرش الذي يضعه المحسن في يده غنيمة لا يحلم بأكبر منها..

وطبيعي أن مشكلة كهذه من حقها أن تبعث كل ذي حسّ إنساني على التفكير والتساؤل عما إذا كانت خارجة عن نطاق الحلول التي يتصورها العقل البشري، أو أن ثمة تخلفا عقليا وسياسيا هو الذي أبرزها في هذا الوضع الذي يخيل للناظر أنها فوق الحلول ووراء كل امكانات الاصلاح..

ومن هنا كانت الصلة بين مأساة آلاف البنغلادشيين، هؤلاء الذين التهمهم البحر والاعاصير، وبين عمل أولئك الفتيان الذين وجدوا ضالّتهم في مصارعة البحر، فمازالوا به حتى استطاعوا أن يقتطعوا منه تلك البقعة التي فتحت لهم أبواب الأمل في حياة كريمة، ولفتت أنظار الناس لاقتفاء أثرهم في التعامل مع البحر لاكتساب أراضٍ جديدة يضيفونها إلى وطنهم، ويجدون فيها المجال الرحب لزيادة مكاسبهم..

*ولم يكن هذا بالأمر الغريب بالنسبة إلى أولئك الأوربيين، فغير بعيد منهم هولندا ذات الأراضي المنخفضة، وقد سبقهم أهلها إلى مثل ذلك منذ زمن بعيد، وما يبرحون يكسبون كل يوم الحديث الجديد من اليابسة، ينتزعونها من البحر ويقيمون عليها السدود بوجهه، لتدفع غاراته وليوسعوا بها من ثروتهم الاقتصادية، التي يغزون بإنتاجها أنحاء العالم.

وقد رأيت على شواطىء بومباي – بالهند – صورا رائعة لهذا الجهد الذي أحال أجزاء غير يسيرة من البحر مناطق رُفِعت عليها مئات المباني، التي بينها ناطحات السحاب..

ولنتساءل هنا، لماذا عجزت طاقة المسلمين في بنغلادش عن التفكير بتغيير هذا الواقع الرهيب، الذي يعيشونه بين الفقر والموت؟ هؤلاء المساكين الذين يعيشون في الجزر المهيأة للزوال كلما تصاعدت حركة الموج من حولها.. أليس لهم أيدٍ تحسن العمل فتتعاون لإقامة السواتر الكافية من الحجارة والتراب حماية لأنفسهم من هذه الهجمات التي قلما تنقطع عن مساورتهم ليل نهار!!.

وهاتيك الشواطىء المعرضة أبدا لهذا الزحف.. أليس للملايين من سكانها بعض القدرة على مواجهته بمثل ما تواجه به هولندا وبومباي أخطار بحريهما!.

الحق أن الحيرة لتستغرقني حين أتصور هذه الفواجع، تُلم بملايين المسلمين دون أن يتحركوا للاستعداد لها ومجابهتها بالتدابير الممكنة المعقولة قبل فوات الأوان.

عندما يفقد المرء حاسة الشمّ تستوي لديه الروائح الكدرة والروائح العطرة، وربما أماته غاز خانق يتنفسه وهو لا يدري حتى يقضي عليه.

والمسلمون من بضعة قرون تنتشر بينهم ثقافات مغشوشة أحدثت تغيّرات جوهرية في صورتهم الباطنة، وقطّعتهم في الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك..

والتخلّف النفسي والذهني لا تصاب به الأمم بغتة، وإنما يجيء بعد أمراض تطول ولا تجد من يحسن مداواتها، ولا أزال أحسّ أثر هذه الأمراض وراء تخلّفنا المدني والعسكري والصناعي والحضاريّ، إنه تخلّف يعانيه المسلمون في آسيا وافريقيا على سواء.

والذي يعنيني هو تبرئة الإسلام من هذه التبعة، إن الاسلام يهب للأمم الكسيحة أقداما تسعى بها بل يعطيها أجنحة تقدر بها على التحليق.

وإنني لأرفض وصف العقل الإسلامي الأول بأنه يكره الخرافة والخمول، إن هذا الوصف يحط من قيمته! إنه عقل يبحث عن الحكمة، ويحضّ على الانطلاق، ويمضي بأتباعه إلى الصدارة، لا بالدعوى ولكن بالجدارة.

وإذا كان هناك تبلّد أو تواكل أو استرخاء فمصدر ذلك أوضاع حاربها الاسلام فاجترّها إليه جهلة أغرار غشّوا علومه وزوّروا شغائره ومازالوا به حتى جعلوا أمته دون غيرها من الأمم...

أريد أن أقول للذاهلين عن علوم الحياة إنكم تُفقدون الإسلام الحياة بهذا الفكر السقيم، وتُعجزونه عن مقاومة أعداء يبغون له الويل..

لا يزال الانسان هو العنصر الأول للنجاح في كل ميدان، والآلة تجيء في المنزلة الثانية، إذا كنا في ساحة صناعية، وكذلك السلاح يجيء في المرتبة الثانية إذا كنا في ساحة عسكرية...

والإنسان المسلم مفتوح البصر والبصيرة كما علّمه كتابه، يمشي على الأرض مكينا لا مهينا، سيدا بين فجاجها لا عبدا، مخدوما لا خادما، ولست أدري ما عرانا حتى صرنا نأكل من غراس غيرنا ونلبس من نسيجه ونستورد ما يبدع!! ثم نقعد لنحوّل مجالس العلم إلى مجالس جدل، ولنمضغ قضايا تضر أكثر مما تنفع.. فإذا أُغير علينا صرخنا نطلب السلاح، وهيهات أن يجيء لأنه من مصانع المغيرين، أو ممن يمتُّ اليهم بأوثق الصلات..!!.

إن ٣٠٪ من مسلمي العالم يحيون في القارة الهندية المترامية الأطراف، وقد رمقت أحوالهم الدينية والمدنية وشعرت بالأسى لأنها دون ما ينبغي، وزادني شعوراً بالقلق أن جماهير كثيفة بينهم وحولهم تعتنق الشيوعية وتسعى لفرضها بوسائل بارعة فماذا أعدّوا للنجاة بأنفسهم ورسالتهم.

وتتشابه مآسي المسلمين في أقطار شتّى، والغريب أن أحد الناس قال لي: إن الاسلام دين وافد على أوربا، فعداوته تعتمد على أسباب قومية! قلت له: إن الإسلام والنصرانية جميعا وافدان على أوربا، وقد كان الرومان وثنيين، وكذلك كانت القبائل القاطنة بشرق أوربا وغربها، فإذا كان لابد من إشباع النزعات الوطنية فلتعد الوثنية الأولى، وليعبد الناس الأصنام! وأحسب ذلك أحظى عند الحاقدين على الاسلام!!.

* * * * *

قَضِــــيّة
الأخـلاق
عِنْـدَنـا

قضية الأخلاق عندنا

هل ترجع هزائمنا العامة إلى أننا لا نملك طائرات بعيدة المدى، وإلى أننا لا نصنع القنابل الذرية؟ بعض الناس يتصور أن عجزنا الصناعي والعسكرى من وراء تخلفنا هنا وهناك، وأن أمتنا لو ملكت هذه الأسلحة سادت وقادت!.

إن هذا فكر سقيم، والواقع أننا مصابون بشلل عضوي في أجهزتنا الخُلُقية، وملكاتنا النفسية يعوقنا عن الحرَاك الصحيح، وأن مجتمعاتنا تشبه أحياءَ انقطع عنها التيار الكهربائي فغرقت في الظلام، ولابدّ من إصلاح الخلل الذي حدث كي يسطع التيار مرة أخرى.

وعلاج الأعطاب الشديدة أو الخفيفة بالكلام البليغ أو النصح المخلص لا يكفي! لابد من إزالة أسباب الخلل، ومن إعادة الأوضاع إلى أسسها السليمة إلى فطرتها الأولى.

﴿فطرة الله التي فطر الناسَ عليها لا تبديل لخلق الله﴾(١).

وقد راعني أن خلائق مقبوحة انتشرت بين الناس دون مبالاة، أو مع إغماضٍ متعمَّد، واستمرت مواقعة الناس لها حتى حوَّلها الإلْف إلى جزء من الحياة العامة، ومن هنا رأينا الاستهانة بقيمة الكلمة، ورأينا قلة الاكتراث بإتقان العمل، ورأينا إضاعة الأمانات والمسئوليات الثقيلة، ورأينا القدرة على قلب الحقائق، وجعل الجهل علما والعلم جهلا والمعروف منكرا والمنكر معروفا..

إن قضية الأخلاق وما عراها من وهَن أمر جَلَلٌ، إنك لا تستطيع بناء قصر شاهق دون دعائم وأعمدة وشبكات من حديد، ولا تستطيع

---

(١) الآية: ٣٠ من سورة الروم.

بناء إنسان كبير دون أخلاق مكينة ومسالك مأمونة وجملة من الخلال تورث الثقة، وتأمل في قول أبي تمام:

وقد كان فوْت الموتِ سهلا فردّه إليه الحِفاظ المرّ والخلُق الوعْر!

إن ضمانات الخلُق الصلب في سيرة هذا البطل هي التي تعلو بها الأمم، وتنتصر الرسالات، وهي التي يستخذي أمامها العدو وتنهار الطواغيت، وعندما ترى مجتمعا صارما في مراعاة النظام، دقيقا في احترام الوقت، صريحا في مواجهة الخطأ، شديد الإحساس بحق الآخرين، غيوراً على كرامة الأمة، كثيراً عند الفزع، قليلاً عند الطمع، مؤثراً إرضاء الله على إرضاء الناس، عندما ترى هذه الخلال تلتقي في مجتمع مَّا، نثق أنه يأخذ طريقه صُعُداً إلى القمة.

وقد كان المسلمون الأوائل نماذج أخلاقية تجسَّد فيها الشرف والصدق والطهر والتجرُّد، ولذلك تصدَّروا القافلة البشرية عن جدارة، ولا غرو فقد كانوا صُنْعَ الإنسان الذي وصفه الله بقوله ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾[1] وكانوا نَضْح روحه العالي فمشت وراءهم الشعوب تتعلم وتتأسّى.

أما اليوم فنحن نجري ونلهث وراء الشعوب الأخرى دون أن نصل إلى مستواها، لأن وزن الأخلاق عندنا خفيف، وارتباطنا بها ضعيف..

والأخلاق مجموعات متنوعة من الفضائل والتقاليد تحيا بها الأمم كما تحيا الأجسام بأجهزتها وغددها، فإذا اعتلّت هذه المجموعات وانفكت رأيت مالا يسرُّ في مسالك العامة والخاصة..

في كثير من البلاد الإسلامية رأيت الوساخة في الطرق والبيوت أو في الملابس والأبدان، ورأيت الفوضى في سير الأشخاص والعربات، ورأيت الإهمال والتماوت في تناول السلع والواجبات، ورأيت دوران الناس حول مآربهم الذاتية ونسيانهم المبادىء الجامعة والحقوق العامة، ورأيت انتشار اللغو والكسل وفناء الأعمار في لا شيء!!.

(١) الآية: ٤ من سورة القلم.

الكذب في المواعيد، وفي رواية الأخبار، وفي وصف الآخرين أمر سهل! وكذلك استقصاء الإنسان في طلب ما يرى أنه له، واستهانته في أداء ما هو عليه، ونقصه ما هو قادر على إتمامه، وفقدان الرفق في القول والعمل، وشيوع القسوة والمبالغة في الخصام!.

ثم تحوُّل الآداب إلى قشور يطلُّ من ورائها الرياء، بل إن الرياء — وهو في الإسلام شرك — يكاد يكون المسيطر على العلاقات الاجتماعية، وهو الباعث الأول على البذخ في الأحفال والولائم والمظاهر المفروضة في الأفراح والأحزان..

العجز الإدارى قد يرجع إلى أسباب خلقية وعلمية، بيد أن الأسباب الخلقية عندنا أسبق.

الفشل العسكرى قد يرجع إلى أسباب نفسية وفنية وصناعية، بيد أن الأسباب النفسية عند العرب أظهر وأقوى..

ويجزم أولو الألباب بأن الساسة العرب والقادة العرب وراء كل نصر أحرزه بنو إسرائيل خلال أربعين سنة.

بل إن قادة اليهود صرّحوا بأن المكاسب التي أحرزوها تجاوزت الأحلام وسبقت الخيال! إنهم ما خططوا لها ولا احتالوا لبلوغها! إنها هدية من الانحلال العربي ومن ضعف الأخلاق، إنها غنيمة باردة لخصوم يحسنون انتهاز الفرص!.

وأي فرصة أغلى من أن يكون القائد العربي صريع مخدِّرات ومسكرات، وأن يكون الزعيم العربي قد وصل إلى منصبه فوق تلٍّ من جماجم خصومه، ورفات بني جنسه المدحورين أمامه.

إن هذه أعظم فرصة لقيام دولة إسرائيل، لقد قامت في الفراغ المتخلف من ضياع الأخلاق لدينا، وتحوُّل المسلمين إلى أمم مقطعة، خرِبة الأفئدة، مُخلدةٍ إلى الأرض، جياشة الأهواء، باردة الأنفاس...

إننا نقول لغيرنا: النار مصير الملاحدة والمشركين، لسوف يُجزَوْنَ ما يستحقون لقاء كفرهم بالله ونسيانهم له!.

ليت شعري لماذا لا نقول لأنفسنا: والنار كذلك مثوى المرائين الذين عَمُوا عن وجه الله، وأرادوا الحياة الدنيا وزينتها، واستماتوا في طلب الشهرة والسمعة والمال والجاه، وكانت علاقتهم بهذه الأهواء أشد من علاقة المشركين بأوثانهم؟؟

لماذا لم نقل لأنفسنا: إن أول من تُسَعَّر بهم النار، رجال دين يطلبون الدنيا، ورجال مال وحرب ينشدون الوجاهة والسلطان؟ ألم يقل لنا نبينا ﷺ ذلك؟.

إنني طفت في أقطار إسلامية كثيرة، فرأيت سطوة العرف أقوى من سطوة الشرع، واتباع الهوى أهم من اتباع العقل!.

وللناس قدرة عجيبة في إلباس شهواتهم ثوب الدين، وتحقيق مآربهم الشخصية باسم الله...

وأذكر أني كنت في شبابي الباكر أغشى بيت تاجر أرمني كي أدرس اللغة العربية لأحد أولاده، وكانت الأم ترقب ابنها وتذكره بما أفرضه عليه من واجبات..

وخلال سنة لاحظت أن هذه الأم، لا ترتدي الا ثوبين أو ثلاثة من نوع رخيص ولكنه نظيف وأنيق، وكثيرا ما كانت تعين زوجها في دكانه وهي على هذه الحال من قلة التكلف وتواضع الملابس.. على حين كنت أرى الأسر الإسلامية فى دنيا أخرى! ما تكتفي المرأة إلا بالعشرات من الثياب الغالية...

ورأيت عرس يهودي يبني بزوجته – قبل قيام دولة اسرائيل – فلم أر ما يثير الانتباه، وتذكرت وصف حافظ إبراهيم لعرس عربي:

سال فيه النضار حتى حسبنا ... أن ذاك الفناء يجري نضارا!!

قلت: ماذا تفعل أمتنا بنفسها؟ وإلى أين تسير؟ وما تلك الأخلاق والتقاليد التي تحكمها؟.

اتصلت بي فتاة في أواخر شهر رمضان عن طريق الهاتف، وقالت: نحن نسمع دروسك، وربما كان لها أثر حسن، أرجوك أن تنصح الآباء ألا يعضلوا بناتهم، إن أبي ردَّ ثلاثة من الخطّاب أتوا يطلبونني، والسن تتأخر بي! قلت: لعل في دينهم أو مروءتهم ما يصرف النظر عنهم! قالت الفتاة في يأس: إن الإيمان والأخلاق آخر شيء ينظر إليه! المهم المال والجاه! المهم الحسب والنسب!.

ودرست أوضاع الزواج في أغلب البلاد الإسلامية، فوجدت النفاق الاجتماعي يهيمن على السلوك: كم سيدفع لشراء الحلي والملابس، كم سيدفع لإقامة الأحفال والولائم؟؟ كم سيدفع لتقديم الهدايا واقتناء الأثاث العصري؟.

ثم هذا العريس المتقدم من أي القبائل؟ إذا لم يكن من الحزب النازي فلن يصلح لفتاتنا، ولو كان مخترع الأقمار الصناعية...

الواقع أن أولي الألباب يحارون في فهم شبكة التقاليد التي تسود عالمنا الإسلامى! وهم يوقنون بأنها بعيدة عن تقوى الله، ورعاية المصالح...

إن الجماهير تغض الطرف عمدا عن مسالك للشباب قبل الزواج تذبح فيها أعراض، وتبيد فضائل، إلى أن يتيسر الزواج وفق المواصفات التي وضعها الشيطان!.

وعندما تكون الرذيلة جزءاً لابدّ منه في الحياة الاجتماعية فعفاء على الدين، إنه سيكون عنوانا لا مفهوم له، أو اسما لا حقيقة له، ولا معنى للمسجد بجوار ماخور!.

إنني أتأذّى عندما تزوَّر الانتخابات في بلدٍ مَّا، لا لأن نفرا من الشطار سوف يسرقون مناصب لا يستحقونها – وهذا وحده جريمة – بل مصدر الأذى مرور الكذب في هدوء، واستقرار شهادة الزور دون اكتراث، ويألف الكبار والصغار أن تطمس الحقيقة دون نكير!.

وأمة تحيا بهذه الخلائق جديرة بالموت..!.

ما عرفته من تعاليم الإسلام، ومن سيرة رجاله، أن الدين والخُلُق قرناء جميعا، وأنه إذا صحّ الإيمان، وصحّت العبادات التي فُرِضَتْ معه، ازدهرت الفضائل وتعامل الناس بشرف ونبل وتراحُم وتسامُح، واستخفى الغدر والخبث والشره والزور.. الخ.

لقد ورثنا ثروة كبيرة من الآداب النفسية والاجتماعية، يتدبرها المرء فيتساءل: إلى أي أفق من الكمال والسناء ترفعنا هذه النصوص لو أننا اعتصمنا بها وحوّلناها إلى مسالك حيّة؟.

خذ هذه النماذج السريعة: قال رسول الله ﷺ: «إن الفحش والتفحُّش ليسا من الإسلام في شيء، وإن أحسن الناس إسلاما أحسنهم خلقا»!.

وقال: «إن الله عزّ وجلّ ليعطي على الرفق مالا يعطي على الخرق، وإذا أحبَّ الله عبدا أعطاه الرفق، ما من أهل بيت يحرمون الرفق الا حُرموا الخير».

وقال: «تبسمك في وجه أخيك لك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وإماطتك الأذي والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دَلْوِك في دلو أخيك لك صدقة، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة».

وقال: «والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا».

وقال ابن عباس مفسرا قوله تعالى: «ادفع بالتي هي أحسن»(١) الصبر عند الغضب والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا – يعني المسلمين – عصمهم الله وخضع لهم عدوهم..!.

---

(١) الآية ٣٤ من سورة فصّلت.

وعن النعمان بن بشير كنا مع رسول الله ﷺ فخفق رجل نعس – وهو على راحلته، فأخذ رجل سَهْماً من كنانته فانتبه الرجل فزعا، فقال رسول الله ﷺ: لا يحل لمسلم أن يروع مسلما.

وقال رسول الله لاصحابه: تدرون أربي الربا عند الله؟ قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: فإن أربي الربا عند الله استحلال عرض امرىء مسلم! ثم قرأ **﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا﴾**(1).

وعن أبي كثير السحيمي عن أبيه قال: سألت أبا ذرّ فقلت: دلّني على عمل إذا عمل العبد به دخل الجنة! قال أبو ذرّ سألت عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: يؤمن بالله واليوم الآخر، فقلت: يارسول الله، إنّ مع الإيمان عملا، قال: يرضخ – يعطي مما رزقه الله، قال: أرأيت إن كان فقيراً لا يجد ما يرضخ منه؟ قال: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر! قال: قلت يارسول الله أرأيت إن كان عيِيًّا لا يستطيع أن يأمر أو ينهى؟ قال: يصنع لأخرق! قال: أرأيت إن كان أخرق – عاجزا – لا يستطيع أن يصنع شيئا؟ قال: يعين مغلوبا! قال: أرأيت إن كان ضعيفا لا يستطيع أن يعين مغلوبا؟ قال الرسول: ما تريد أن يكون في صاحبك من خير!! يمسك عن أذى الناس! قلت: يارسول الله! إذا فعل ذلك دخل الجنة؟ قال: ما من مسلم يفعل خصلة من هؤلاء إلا أخذتْ بيده حتى تدخله الجنة!.

تأمّل في هذا الاستقصاء! وتأمّل في أن خِلال الخير هي التي تقود الرجل من يده فتدخله الجنة!.

إن السلبية لا تزكّي فردا ولا جماعة، والأمة التي تدور حول مآربها وحسب، لا تزيد عن أعدادها من الدواب في الحقول، أو الوحوش في الغابات..

---

(1) الآية ٥٨ من سورة الأحزاب.

وهناك رذائل تتجاوز مقترفيها ويمتد أذاها إلى آماد بعيدة، فالغش في الامتحانات أو السلع أو المباني أو رصف الطرق، أو غير ذلك من شؤون الناس خاصة أو عامة، رذيلة مدمِّرة النتائج، وقد نفى النبي عليه الصلاة والسلام صاحبها من جماعة المسلمين «من غشّنا فليس منا» (١).

والواقع أن فشُوَّ الغش في مجتمعنا، وقلته في مجتمعات أخرى هدَّ ركننا وأضعف قوانا وزعزع الثقة فينا!.

وبعض الجامعات الكبرى ترفض الإجازات العلمية الممنوحة من بعض معاهدنا لأنها لا تطمئن إلى قيمتها، كما أن بعض المستهلكين يرفض السلع التي نصنعها لأنه لا يطمئن إلى جودتها! أفيشرفنا هذا الوضع؟.

وكما نفى النبيُّ ﷺ أن يكون الغشاشون من الأمة نفى أن يكون الهابطون بأقدار الكبار، الجاحدون لمكانة العلماء من الأمة «ليس منا من لم يوقِّر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه».

والحقُّ أن فواجع رهيبة أصابت المسلمين بسبب غمط الأذكياء وتقديم الأغبياء، والعرب يرجحون عصبية الوطن والنسب على الكفاءة العلمية والادارية، والمستبدون من الحكام يقدمون مشاعر الزلفى والملق على القدرة الرائعة والخبرة الواسعة.

وقد كنت أوازن بين قادة الشيوعية والصليبية من ناحية وقادة المسلمين من ناحية أخرى فأشعر بغصَّة، القوم يقدمون أعظم من لديهم ونحن نقدم ما تيسَّر...!!.

والأخلاق ليست شيئا يكتسب بالقراءة والكتابة، أو الخطابة والدعاية، انها درجة تكتسب بالمعاناة الشديدة، كيف تنتقل من

---

(١) رواه مسلم.

أدنى إلى أعلى؟ كيف تنتقل من الطراوة إلى الصلابة؟ والمرء في هذا الميدان يصنع نفسه، وهو أدرى الناس بما يشينه من كسل أو بخل أو خوف.. الخ، فيرسم طريق الشفاء ومراحل الخلاص، ولا يزال يتابع السير، ويغالب العقبات حتى يبرأ من علله..

على أن للجماعة الانسانية دخلا كبيرا في إدراك هذا النجاح، وقد علمنا أن هناك بيئات تنبت الذل وأخرى تنبت العز، وبيئات تنبت التواصل والتعاون وأخرى تنبت التحاقد والتحاسد.

وكان في الامكان أن تتألف جماعات أو مدارس أو طرق لهذه التزكية المنشودة، بيد أن رجال الطرق لدينا اعتمدوا على أوراد وبدع لا خير فيها، وفقدوا المقدرة العلمية والعملية على التسامي بأنفسهم وبالأجيال، فأساءوا ولم يحسنوا، ومن هنا لم تجد الأخلاق التربة التي تزكو فيها وتزهر.. وعاش الناس وفق ما أتيح لهم من طبائع وتقاليد...

وكم كنت أودّلو وجد الأستاذ المخلص الذي يتعهد الناشئة ويبصر ميولهم ومسالكهم، فيقوِّم ما اعوج بأناة، ويصلح الأخطاء بمحبة، ويحل العقد النفسية وينشط الملكات الذكية ولا يزال يصحبها بتوجيهاته حتى يخلق من الأطفال الصغار أبطالا كبارا، كل يمضي حسب قدراته ﴿**ولكل وجهة هو موليها**﴾[1].

وعصرنا لا يسمح بوجود هذا الأستاذ، لأنه أوقد جذوة التنافس بين الناس، وبغَّض لكل امرىء وضعه، فهو لا يبقى فيه إلا ريثما يتحول عنه إلى منصب أعلى.

ويغلب أن ينتقل هذا الاستاذ من منصبه العلمي إلى منصب اداري أحظى لدى الناس، فلا يبقي في ميدان التربية الحقيقية إلا من فاتته القافلة وأكرهته الأيام على البقاء..!.

---

(١) الآية ١٤٨ من سورة البقرة.

والأخلاق لغة عالمية تتفاهم بها الشعوب على اختلافها، وتتحاكم إلى منطقها، وربما اختلفت تقاليد وأحكام، لكن الأخلاق تظل مرتكزة إلى ما أودع الله في الفِطر من تحسين الحسن وتقبيح القبيح..

ونحن نعلم من ديننا أن من أركان النفاق الكذب في الحديث، والخُلْف في المواعيد، والخيانة فى الأمانات، والغدر في العهود، والفجور في الخصومات.. والناس في المشارق والمغارب ما ينكرون شيئا من هذا، وما يحترمون كاذبا ولا غادراً.. إلا أننا نلفت الأنظار إلى حقيقة لها خطرها، إن الأخلاق في أرضنا تتصل اتصالا وثيقا بالايمان، فإذا اهتزت العقيدة ظهر النقص، ونجم الإثم، واضطربت الأمة كلها.

وقد أصابنا الاستعمار العالمي في صميمنا عندما أوهى الاسلام واستبعد إيحاءه في الحياة العامة، لقد تبع ذلك انهيار خلقي محزن، وميوعة لا تستقر فيها على شيء!.

ربما كانت للقوميات الأخرى فلسفات تتماسك بها، أما في دار الاسلام فإنه مع استبعاد الإيمان ومواثيقه وشعائره انحلت الأفراد والجماعات على نحو لم تعرفه بلاد أخرى، وتبجّحت الخيانة، وفجر الأقوياء، ولصق الضعاف بالحضيض، وصار طلب الخبز النداء الأول! وارتضى الكثيرون أن يفوزوا من الغنيمة بالإياب..!.

ولكي يعود سلطان الأخلاق إلى عرشه يجب أن يعود اليقين إلى الأفئدة، وأن تألف الجماهير الصلاة، وأن تنتصر الفضائل على الشهوات، وألا يُحترمَ كذوبٌ أو يتقدم مفرّط.

وأرى أن يتم تصنيف الأخلاق وفق مقتضيات العصر، فهناك أخلاق تُشرح بدقة في التعامل بين الحكام والجماهير، وأخرى بين الجنسين في شتّى الميادين، وأخرى بين العمال وأصحاب العمل، أو بينهم وبين العمل نفسه.. وفي الإسلام مدد لا يغيض لهذه الغايات كلها.

فى
عَالمُ
المروَيات

فى عَـالمْ المروَياتْ

قرأت هذه الرواية المنسوبة إلى الشعبي – وهو من التابعين – وضقت بها ضيقا شديدا.

وقبل أن أنقلها ألفت الأنظار إلى تفاهة نفر من الناس يعيشون داخل قوقعة من أهوائهم ثم يحاولون عقد صلح بين الدين الحنيف وأهوائهم الشاذة!.

. هذا امرؤ مصاب بجنون العظمة، تقول الرواية: إنه قصد الكعبة طالبا من الله أن يمنحه ملك العالم الإسلامي، فإذا خرج عليه أحدٌ أمكنه الله من ضرب عنقه (!) أي دعاء هذا؟.

وهذا امرؤ آخر متواضع يطلب ملك العراق فقط، بيد أنه يضم إلى هذا الطلب الزواج من امرأة بعينها، سمَّتْها الرواية!.

لم أشك في أن الرواية مكذوبة، وأن الشعبي أعقل من أن ينقل هذا الهراء، لكن الذي أهمني هو سوء تصوُّر بعض الناس لحقائق الدين ومراميه، فليس الدين كَبْتاً للشهوات الجامحة، وليس رفعا لمستوى النفس، وليس نشداناً للآخرة، بل هو جراءة على الوقوف بين يدي الله لطلب مالا يليق منه – سبحانه وتعالى..!.

. والغريب أن القصة تنتهي بدعاء من الصحابي الكريم عبد الله بن عمر، فإنه لما رأى أولئك النفر يسألون الله الدنيا ومتاعها ذهب هو إلى الكعبة وطلب من الله الجنة.

قال الراوي: فبشَّره الله بإجابة سُؤْله! كيف بشره؟ سلبه بصره! ومن صبر على العمى دخل الجنة!!.

ولأنقل الرواية بعد هذه التقدمة... فهي نموذج لتفكير أقوام يعيشون في عالم المرويات التي لا يضبطها فقه ولا وعي...

نقل ابن ظهيرة عن الشعبي أنه قال: رأيت عجبا كنا بفناء الكعبة أنا وعبد الله بن الزبير وأخوه مصعب وعبد الملك بن مروان فقالوا بعد أن فرغوا من حديثهم ليقم رجل بعد رجل فليأخذ بالركن اليماني وليسأل الله تعالى حاجته فإنه يُعطى من سعة، ثم قالوا لعبد الله قم أولا فإنك أول مولود في الهجرة، فقام فأخذ بالركن اليماني ثم قال: اللهم إنك عظيم ترجى لكل عظيم، أسألك بحرمة وجهك وحرمة عرشك وحرمة نبيك ﷺ أن لا تميتني من الدنيا حتى توليني الحجاز ويسلم عليَّ بالخلافة وجاء وجلس، ثم قام أخوه مصعب فأخذ الركن اليماني فقال: اللهم إنك رب كل شيء وإليك كل شيء أسألك بقدرتك على كل شيء أن لا تميتني من الدنيا حتى توليني العراق وتزوجني سكينة بنت الحسين وجاء وجلس، ثم قام عبد الملك بن مروان فأخذ بالركن اليماني وقال: اللهم رب السموات السبع والأرض ذات النبات بعد القفر، أسألك بما سألك عبادك المطيعون لأمرك، وأسألك بحرمة وجهك، وأسألك بحقك على جميع خلقك وبحق الطائفين حول بيتك أن لا تميتني حتى توليني شرق الأرض وغربها ولا ينازعني أحد إلا أتيت برأسه ثم جاء وجلس.

ثم قام عبد الله بن عمر حتى أخذ بالركن ثم قال: اللهم يا رحمن يا رحيم أسألك برحمتك التي سبقت غضبك، وأسألك بقدرتك على جميع خلقك أن لا تميتني من الدنيا حتى توجب لي الجنة.

قال الشعبي فرأيت كل واحد وقد أعطي ما سأل وبشر عبد الله بالجنة، قال ابن ظهيرة: ولقائل أن يقول: ما الدليل على وجه البشرى؟.

والجواب من وجهين:

الأول: أن ابن عمر كان قد كُفّ بصره بعد ذلك وقد وعد النبي ﷺ «من ابتلي بذلك بالجنة» - كما في صحيح البخاري.

والثاني: أن الثلاثة لما أعطوا ما سألوه كان ذلك أدلَّ على إجابة دعاء الجميع إذ هو اللائق بكرم الله وسعة عطائه، وكان سيدنا ابن عمر من الورع والزهد والصلاح بالمكانة التي لا تجهل كما في مناقبه (كذا في الجامع اللطيف ٤٢).

عندما قرأت هذه الحكاية منسوبة لمحدث فقيه قلت: كيف لم يشعر التابعي الجليل بما في هذا الدعاء من نُكْر؟ أيجوز أن يكون عبد الله بن الزبير طالبَ ملك قاتَلَ دونه ومات في سبيله؟.

ألا يعرف عبد الله أن سؤال الإمارة لا يجوز، وأن طالبها لا يُوَلَّى؟ وإذا رفضت أن ينسَبَ هذا المسلك لعبد الله، ورفضت أن ينسب مثله إلى أخيه الشجاع مصعب، فهل يجوز أن يطلب عبد الملك أن يمكنه الله من قتل الذين يشغبون على سلطانه الفذ؟.

أهذه عبادة الله! فما عبادة النفس إذن؟.

وأنتقل إلى موقف الرجل العابد المجاهد عبد الله بن عمر الذي شهد مع رسول الله ﷺ معاركة الوثنية، وبقي طيلة عهد الخلافة صواما قواما منكرا لذاته مبتعدا عن الفتن مستغرقا في طلب الآخرة!.

أيُنسى هذا الماضي الوضيء كله، ولا يستحق به شيئا حتى إذا فقد بصره قيل: هذا بشير الجنة؟.

أعرف الحديث القدسي الصحيح «اذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته عنهما الجنة». وفسر النبي ﷺ حبيبتيه بعينيه.

وتصبير الانسان على ما أصابه هو من عزائم الدين! والرضا بقضاء الله طريق لا ريب فيه إلى الجنة...

ولكنا نحفظ أن رسول الله ﷺ كان يستعيذ بالله من سيىء الاسقام والأوجاع، ومن أدعيته: «اللهم متّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوّتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا؟».

أي لا تحرمنا من هذه الحواس ما بقينا، فلا تفارقنا ما دمنا على ظهر الأرض.

ترثنا بعد أن نفارق نحن الحياة ولا نرثها ونحن أحياء..

هذه طبيعة البشر، وفطرة الله في الأنفس، فليس يستحب أحد لنفسه فَقْدَ سمع ولا بصر، ولا بشرى في هذا! فإذا أصيب كما أصيب يعقوب صلوات الله عليه صبر واحتسب وتعلّق بثواب الآخرة!.

لكن ناقل الرواية التي أثبتناها هنا كان من ضيق الفقه بحيث ذهل عن ماضي ابن عمر الزاهر، وقال: مادام الله قد عجل الإجابة لطلاب الملك والنساء، فالإجابة المعجلة لابن عمر أن يفقد بصره ليدخل الجنة..!.

ويؤسفنا أن كثيرا من النقلة للأخبار مبتَلَوْنَ بهذا التصور العقلي، وذلك ما جعلني أقول في كتاب آخر: لا سنة من غير فقه!.

وعالم المرويات واسع الأرجاء، ونحن نستقبله كل صباح عندما نقرأ الصحف التي تصدر كل يوم، أليست تروي لنا أنباء ما يقع في الدنيا؟ وهذه الصحف الناقلة للأخبار أنواع، منها ما هو جاد دقيق نثق في مصادره ونستريح إلى تعليقاته، ومنها ما هو معروف بالتهويل والاثارة نأخذ الحقائق منه بقدر..

وإذا كانت الصحافة والإذاعة ترويان ما يقع الآن فإن التاريخ السياسي والأدبي يروي لنا ما وقع في الماضي القريب والبعيد...

والماضي سناد الحاضر، وكثير من التيارات المعاصرة تنبجس من الأيام الخالية! ونحن نقرر ذلك لندرك أن التعامل مع عالم المرويات لا محيص عنه، ولا عيب فيه..

إنما يكمن العيب في تلقي الأخبار دون تمحيص، وفي قبول الروايات دون رويَّة، والأمم ذوات الأديان تعتمد في إيمانها وسلوكها على ما آل اليها من تراث، ولسنا - نحن المسلمين - بدعا في الاستقاء من الوحي الذي نزل، إستفتائه في أمور كثيرة.

ومن الواجب أن نعرف كيف تلقينا ما جاءنا، فما كنا، ولن نكون، أتباع أوهام! إننا نصدق ما لا يكذبه عاقل! ولدينا من مقاييس النقد مالا يعرفه الآخرون..

ولنذكر بادىء ذي بدء أن القرآن الكريم أساسنا، وهو كتاب ثابت ثبوت السماوات والأرض والليل والنهار، وحوله سياج من التواتر يجعله محفوفا باليقين من جهاته كلها...

والكتاب تحفظه عن ظهر قلب جماهير من المؤمنين وهو معروض على أولي الألباب في كل آن يتدبرونه ويتساءلون عما يعنُّ لهم فيه..

ونحن المسلمين نرى في القرآن الكريم جميع الحقائق التي كلّف المرسلون الأوائل بتبليغها، وأنه إلى آخر الدهر مجمع العقائد والشرائع التي تكفل للناس الهدى والاستقامة، وأنه مصون من التزّيد والتحريف اللذين تعرضت لهما كتب أخرى، وأنه يمكن القول الجازم بأن الوحي الإلهي للناس أجمعين، في القارات كلها قد استقر في هذا الكتاب وحده.

ونجيء بعد ذلك إلى سنة محمد خاتم النبيين لنقول: إن ما تواتر منها واشتهر وصح جدير بالثقة، وأنه امتداد للقرآن يمشي في سناه ولا يزيغ عنه!!.

والواقع أن علماءنا الأقدمين وضعوا لقبول المرويات ضوابط يتأملها العقل العادي، فيستريح إليها، وقد قلت: إن هذه الضوابط لو عرضت على الماديين أنفسهم ما لاحظوا عليها مأخذا.

وما نستطيع أن نجد ضمانات أخرى فوق الضمانات التي اشترطوها لمنع الأخطاء عن النقول المروية...

ولا نقبل من أحد أن يقول: نرفض كل هذه المرويات لأن الوهم قد يتسرب إليها، لأننا لا نقبل من أحد أن يقول: نرفض التاريخ كله لأن التاريخ يغلب أن يكتبه المنتصر، ولا نقبل من أحد أن يقول: أرفض قراءة الصحف لأنها قد تروي الشائعات.

اقرأ وانقد ووازن ورجح وابحث عن الحق ما استطعت وتجرَّدْ من الهوى، فهذا هو النهج!.

وعلماؤنا الأقدمون مشوا في هذا الطريق، والأمة الاسلامية في تاريخها الأول كانت أمة حقائق لا أوهام، ولم تكن للخرافات أسواق رائجة كما يحدث الآن...

كان للفقه علماؤه، وكان للحديث علماؤه، وربما ذهل الآخرون في شيء فيستدرك عليهم الأولون، وقد يكون العكس، وإن كان تاريخنا العلمي قد جعل الفقهاء أصحاب القيادة وجعل الجماهير تتبع مذاهبهم عن اجتهاد طورا وعن تقليد أغلب الأحيان...

والذي نلحظه آسفين أن كثيرا من جامعي السنن قد تساهلوا في قبول أسانيد ضعيفة، وأن هذا التساهل زحم ميدان السنة بآثار ما كان ينبغي أن تذكر..

وإذا كان من شرط الحديث الصحيح أن يخلو من الشذوذ والعلة القادحة فإن رواة كثيرين نقلوا ما خالفوا به الثقات، ونقلوا ما به علل تَرُدُّه! ومع ذلك سطَّروا وحبَّروا، وتركوا للأخلاف ما عكر المجرى، وبلبل الفكر.

إن رجلا جليلا كالبخاري ترك أحاديث كثيرة مرت به فلم يرها أهلا للتدوين، ومن هنا لم يجمع في صحيحه الا ألفين وبضع مئات من السنن..

على حين جمع غيره آلافا وآلافا من الآثار تحتاج في غربلتها – حسب مقاييس علمائنا – إلى جهد جهيد..

ولأذكر مثالا واحدا للبلاء الذي أصاب الجماعة الاسلامية من تسجيل الأحاديث الضعيفة وتركها تشغب على معالم الدين، ومعاقده!

من تلاوتنا للقرآن الكريم نعي أن الله خلق لنا ما في الأرض جميعا، ومكننا منه وملكنا إياه..

ألسنا جزءا من البشر الذين قال الله لهم.

﴿... وسخّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾(1).

وصاحب هذه الامكانات المتاحة مكلّف أن يتصرف فيها بما يرضي الله، كما تصرَّف سليمان في نقل عرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين ثم قال: **﴿هذا من فضل ربِّي ليبلوني أأشكر أم أكفر﴾**(2).

هل يقبل من أحد أن يستقيل من هذه الوظيفة، ويحيا صفر اليدين، ويفرَّ من أعباء التكليف، ويقول: أنا زاهد في الدنيا...!!.

وما مستقبل الإيمان ودولته على ظهر الأرض إذا كان الأتباع جماهير غفيرة من أولئك المستقيلين الهاربين؟؟.

إن أعداداً كبيرة من المسلمين زعموا أن صاحب الرسالة آثر الفقر على الغنى، ودعا إلى قلة ذات اليد، وبهذه الفلسفة الجبانة نشروا الفقر في الأمة الإسلامية من عدة قرون، وجعلوها لا تحسن إدارة مفتاح في خزائن الأرض! الأمر لا يستحق هذا العناء!!.

فلننظر: هل جاء في سنة صاحب الرسالة تحقير للغني وتأخير لأصحابه وذم لأنشطتهم؟.

---

(1) الآية ١٣ من سورة الجاثية.

(2) الآية ٤٠ من سورة النمل.

في السنة الصحيحة لا يوجد شيء من ذلك ! بل الذي رواه البخاريُّ « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلّطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلّمها » .

والأحاديث كثيرة في توكيد هذه القاعدة الاجتماعية الرشيدة ، فالعالَم الأول في عصرنا يقوم على المال والعلم ، والعالَم الثالث يقوم على الفقر ، والجهل البسيط أو المركب !! .

ومع ذلك فقد روى نقلة السنن عشرات الأحاديث تحت عنوان « الترغيب فى الفقر وقلة ذات اليد وما جاء في فضل الفقراء والمساكين والمستضعفين .. » .

وقد ساءني في إحدى المحاضرات أنّ المتحدث – هو من العلماء المرموقين غمز عبد الرحمن بن عوف ، ناقلا حديثاً نبويا يفيد أن عبد الرحمن – لكثرة ماله لا يدخل الجنة الا حبوا – قلت له : هذه الأحاديث وأشباهها معلولة لا يجوز أن تروى ! .

وأنا وَفْقَ القواعد القرآنية والنصوص القاطعة أرفض هذا الحكم .. أليس يقول الله في عبد الرحمن وأشباهه ﴿ **لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ..** ﴾(١)

وعبد الرحمن أسلم يوم كان المسلمون يُعَدُّون على أصابع اليد ، ومنذ أسلم سخر نفسه وماله لله ، فهل جريمته أنه صاحب مال سلطه الله على هلكته في الحق ؟ أذلك الذي يؤخر مكانته ويضع درجته ؟ .

إن علماءنا قالوا بوضوح في علم الحديث : إذا خالف الثقة الأوثق فحديثه شاذ ، فإذا كان المخالف ليس ثقة فحديثه منكر أو متروك ! لماذا لم نطبق القواعد العلمية الموضوعة المحترمة على هذا السبيل من المرويات التي ضارت مجتمعنا وأوهنت قواه .. ؟ .

---

(١) الآية : ١٠ من سورة الحديد .

لقد رأيت الأمة الاسلامية محكومة بجملة من الأحاديث المتروكة والمنكرة والشاذة! ورأيت هذه الأحاديث تطرد أمامها المتواتر والمشهور والصحيح! كما تطرد العملة المزيفة العملة الصحيحة!.

ولا أدري كيف استطاعت هذه الأحاديث تنويم حَمَلَتِهَا، ولا أزال أعجب كيف أن رجلا من أساطين المحدثين كابن حجر يعترف بحديث الغرانيق وهو أكذوبة غليظة، وإن كان يضعفه، لكنه يرى له أصلا، أي أصل غفر الله لك؟.

وكذلك فعل مع حديث «أَفَعَمْيَاوَانِ أنتما؟» مع أن الروايات الصحيحة في البخاري ومسلم تردّه، وتجعله حديثا لا وزن له...

ورأيت ابن كثير يروى حديثا أن سورة الأحزاب كانت في طول سورة البقرة(!) وأن النسخ عرض لأكثرها فبقي منها ما بين أيدينا! قلت أينزل الله وحيا في نحو ثلاثين صفحة ثم يمحو منه ثلاثا وعشرين أو أربعا وعشرين صفحة ويدع الباقي؟ إذا لم يكن هذا الكلام علة تقدح في الحديث فما تكون العلل القادحة؟ هذا حديث لا يساوي المداد الذي كتب به.

والأحاديث الصحاح من رواية الآحاد تفيد العلم المظنون لا العلم المستيقن، وقد اتفق علماؤنا على العمل بها في فروع الشريعة.

ورأيت قلة من الظاهرية والحنابلة يرون العمل بالآحاد في القضايا القطعية، بيد أن هذا رأي مردود، وعلى أية حال فعقائدنا تعتمد على نصوص متواترة، سواء كان التواتر لفظيا أو معنويا.

والقدر الذي لابد منه من العبادات والأخلاق والمسالك المنجية عند الله مروي بهذا الطريق:

وأكثر ما وقع من خلاف هو في أمور ثانوية، الاجتهاد فيها من أهله مأجور خطأ كان أم صوابا، ولا تهولنك وجهات النظر الكثيرة في المذاهب الفقهية، فإن الخصام فيها نوع من الجنون الذي يسود بين الدهماء، ويجب أن يتنزه عنه أولو الألباب..

ذلك، ويرى أبو حنيفة أن «الفرض» ما ثبت بدليل قطعي لا شبهة فيه، أما ما يثبت بدليل ظَنّيٍّ كأحاديث الآحاد، فإنه يكون دون الفرض..

والأئمة الكبار يحسنون التنسيق بين أدلة الكتاب والسنة، وفي علم أصول الفقه متسع لمن أراد الاستزادة، وإنما ذكرت هذا الكلام لأني في ميدان الدعوة الاسلامية وجدت ما يستحق الشرح والتعليق، عند الاستشهاد بشتى الأحاديث..

إنني آبى كل الإباء أن أربط مستقبل الإسلام كله بحديث آحاد مهما بلغت صحته، كيف أجازف بعقائد ملّة شامخة الدعائم عندما أقول: لا يؤمن بها من لم يؤمن بهذا الحديث الوارد؟.

أقول ذلك لأني وجدت في تجاربي، وفي قراءاتي ما يحتاج إلى إزالة الريبة وكشف الحق، قال الباقلاني يصف ما دار بينه وبين ملك الروم من حوار حول صحة الإسلام، «قال الملك: هذا الذى تدعونه معجزة لنبيكم فى انشقاق القمر، كيف هو عندكم؟ قلت: هو عندنا صحيح! انشقَّ القمر على عهد رسول الله ﷺ حتى رأى الناس ذلك، وإنما رآه الحضور، ومن صادف نظره إليه في تلك الحال! فقال الملك: وكيف لم يره جميع الناس؟ قلت: لأن الناس لم يكونوا على موعد وأهبة ليروا انشقاقه! قال الملك: أبينكم وبين القمر نسب أو قرابة؟ لأي شيء لم تر ذلك الروم وسائر الناس؟ وإنما رأيتموه أنتم خاصة! قلت: فهذه المائدة – التي أنزلها الله على عيسى – بينكم وبينها قرابة؟ لماذا رأيتموها أنتم وحدكم دون اليهود والمجوس والبراهمة وأهل الإلحاد، وخاصة يونان جيرانكم؟ فإنهم كلهم منكرون لهذا الشأن، وأنتم رأيتموها دون غيركم؟»..

وقبل أن أذكر رأيي في هذا الجدال، أذكر للقراء أن صاحب إظهار الحق تعرض لهذه القضية، وردَّ على أتباع الكتاب المقدس بأدلة أخرى أشد قوة وأكثر إقناعا مما ذكره الشيخ الباقلاني...

وكأنه يقول لهم: إن اعتراضكم على قصة الانشقاق يرتد اليكم فيهدم مقررات عندكم لها مكانتها، بل قد يحجب الثقة عن مراجعكم العتيدة، ويجعلها مستحيلة الصدق، وقد فصل كلامه في سبعة وجوه[1] نجتزىء منها بوجهين اثنين:

الوجه الأول: تقولون إن طوفان نوح امتد سنة كاملة، فَنِيَ خلالها كل ذي حياة من الطيور والبهائم والحشرات والإنسان، ما عدا أهل السفينة، وما نجا من بني الإنسان غير ثمانية أشخاص على ما هو مصرح به في الباب السابع والثامن من سفر التكوين..

وقد أيد ذلك بطرس فى رسائله الأولى والثانية، وأكد أن العالم القديم فني إلا ثماني أنفس.

قال الشيخ رحمه الله: إن حادثة الطوفان كما يذكر أهل الكتاب مضت عليها ٤٢١٢ سنة شمسية – كتاب المؤلف ظهر منذ قرن تقريبا – وهذه الحادثة العامة الطامة لا يعلم الهنود عنها شيئا، قال ابن خلدون: اعلم أن الفرس والهند لا يعرفون الطوفان، ويقول بعض الفرس: إنه كان «ببابل فقط»!.

والحق الذي نجزم به أن الطوفان وقع لقوم نوح وحدهم، وأن أوربا وإفريقية والأمريكيتين وأكثر آسيا الكبرى لم يغمرها الطوفان، ولماذا يحكم الله عليها بالغرق وهي لا تعرف نوحا ولم تسمع به؟؟.

وظاهر من التاريخ العبري أن الطوفان وقع بعد عصر بناة الأهرام في مصر، والمصريون ما تعرضوا للطوفان ولا غرق من أرضهم شبر!.

ومعنى ذلك أن ما ذكره سفر التكوين عن هلاك العالم القديم كله لا أصل له.

---

(١) لخصنا بأمانة ما ذكره المؤلف، خشية التطويل، ومن شاء رجع إلى الكتاب.

الوجه الثاني : جاء في الباب العاشر من كتاب يوشع وفق الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ م ما يلي : « ١٢ حينئذ تكلم يسوع أمام الرب في اليوم الذي دفع « الأموري » في يدي بني إسرائيل وقال أمامهم : أيتها الشمس مقابل « جبعون » لا تتحركي » (!) والقمر مقابل قاع أيلون ١٣ فوقفت الشمس والقمر حتى انتقم الشعب من أعدائهم ، أليس هذا مكتوبا في سفر الأبرار ، فوقفت الشمس في كبد السماء ، ولم تكن تعجل إلى الغروب ، يوما تاما ؟ .

وفي الباب الرابع من الحصة الثالثة من كتاب تحقيق الدين الحق المطبوع سنة ١٨٤٦ م ص ٣٦٢ يقول : « أما غربت الشمس – أي تأخر غروبها – بدعاء يوشع إلى ٢٤ ساعة » ؟ .

وتوَقُّف الشمس في الفلك ، وعدم جنوحها إلى الغروب مدة يوم كامل كما يروون وقع قبل الميلاد سنة ١٤٥٠ .

مَنْ من أهل الأرض يذكر هذه الحادثة ؟ إن أحدا من كتَّاب التاريخ لم يشر اليها أو يتحدث عنها ، وإذا كان عدم العلم العام بانشقاق القمر قادحا في صحة الرواية ، فالأمر كذلك في توقف الشمس ليوشع ، بل إنّ توقف الشمس يوماً أو بعض يوم أوغل في البعد وأجدر بالإنكار ..

ولْأترك ما قاله صاحب إظهار الحق ولْأعد إلى حوار الباقلاني مع ملك الروم ! إنني لو كنت مكان الرجل ، وسألني هذا القيصر عن انشقاق القمر لقلت له كلاما آخر .. ! .

لقلت له : أيها الامبراطور الكبير إن سلفا عظيما سبقك في حكم الرومان جاءه كتاب من رسولنا يقول له فيه « أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين » ثم يختم كتابه بقول الله تعالي « ...يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألّا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتّخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون »[1] .

---

(١) الآية ٦٤ من سورة آل عمران .

أيها الامبراطور، إن نبينا عندما كاتب سلفك، لم يذكر له خارقة من خوارق العادات التي عرضت له، وإنما خاطب عقله، واستثار أنبل ما في نفسه، وذكر له أنه باقٍ على إسلامه هو لله – صلوات الله عليه – إن أبَي الامبراطورُ متابعته علي ما جاء به، وأشهده على ذلك..!!!

فإن رفض ملك الروم هذه الإجابة مني قلت له: ان شرحْتَ صدرا بعقيدة التوحيد، ورفضت من الناحية التاريخية انشقاق القمر وتوقف الشمس، فأنت مسلم مقبول الإيمان.

ولا يصدَّنك عن دين الله خبر راوٍ من الرواة حفظ أم نسي، واعلم أن من مفكري المسلمين ومفسري دينهم من اعتبر الانشقاق من أشراط الساعة، وأن من المتكلمين من توقف في أخبار الآحاد، كما قال إبراهيم النظام: «إن القمر لا ينشق لابن مسعود وحده» وابن مسعود هو الذي رُوِىَ عنه الحديث المذكور...

ربما قال لي قائل: كيف تتهاون في حديث صحيح على هذا النحو؟ وأجيب إنّ ردّ حديث بالهوى المجرد مسلك لا يليق بعالم، وقد ردّ أئمتنا الأولون أحاديث صحاحا لأنها خالفت ما هو أقوى منها عقلا ونقلا.. وبذلك فقدت مقومات صحتها، ومضى الإسلام بمعالمه ودعائمه لا يقفه شيء! وقد قلت: إنني لا أربط مستقبل ديننا بحديث آحاد يفيد العلم المظنون، وأزيد الموضوع بيانا فأقول:

إننى أومن بخوارق العادات، وأصدق وقوعها من المسلم والكافر والبَر والفاجر، وأعلم أن قانون السببية قد يحكمنا نحن البشر بيد أنه لا يحكم واضعه تبارك وتعالى..

وعندما قرأت حديث الانشقاق شرعت أفكر بعمق في موقف المشركين، إنهم انصرفوا مكذبين إلى بيوتهم ورحالهم بعدما رأوا القمر فلقتين عن يمين الجبل وشماله، قالوا: سحرنا محمد، ومضوا آمنين سالمين لا عقاب ولا عتاب...!.

قلت: كيف هذا؟ في سورة الأنبياء يحكي الله سبحانه سرَّ كفر المشركين بنبيهم محدِّدين مطلبهم منه **﴿فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾**[1] ويحكي القرآن لماذا لم يجابوا إلى مطلبهم **﴿ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون﴾**[2] إن التكذيب بعد وقوع الخارق المطلوب يوجب هلاك المكذبين!.

فكيف يترك هؤلاء المكيون بدون توبيخ ولا عقوبة بعد احتقارهم لانشقاق القمر؟.

ويؤكد القرآن الكريم هذا المنطق في سورة الاسراء **﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كَذّب بها الأولون﴾**[3] فإذا كان ارسال الآيات ممتنعا لتكذيب الأولين بها فكيف وقع الانشقاق؟..

بل كيف يقع أو يقع غيره والله يقول في سورة الحجر **﴿ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون، لقالوا: إنما سكِّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾**[4].

ثم إن المشركين في مواطن أخرى ألحُّوا في طلب الخوارق الحسية **﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها..﴾**[5] فلماذا لم يُقَل لهم: سبق أن انشق لكم القمر فكذبتم؟ أيمرّ هذا الحدث ليعقبه صمت تام؟..

وفي سورة أخرى قيل للكافرين وهم ينشدون المعجزات الحسيّة: حسبكم القرآن فيه مقنع لمن نشد الحق **﴿وقالوا: لولا أُنزل عليه آيات من ربه، قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم...﴾**[6].

---

(١) الآية: ٥ من سورة الانبياء
(٢) الآية: ٦ من سورة الانبياء
(٣) الآية: ٥٩ من سورة الاسراء
(٤) الآية: ١٤، ١٥ من سورة الحجر.
(٥) الآية: ١٠٩ من سورة الأنعام
(٦) الآية: ٥٠، ٥١ من سورة العنكبوت.

إن مئات الآيات في سور كثيرة طوال العهد المكي دارت في إثبات الرسالة على محور واحد، إيقاظ العقل وتعريفه بربه واعتبار صاحب هذا الوحي إمام السائرين إلى الله المعتصمين بحبله، وتجاوزت مقترحات الكفار أن يروا آية مادية معجزة..

من أجل ذلك لم أقف طويلا عند حديث الانشقاق وأبيت بقوة أن أربط مستقبل الدعوة به أو بغيره من أحاديث الآحاد التي تصطدم بأدلة أقوى منها..

ولست بدعا في هذا المسلك، فأبو حنيفة ومالك ردُّوا أحاديث من هذا الطراز عارضها من دلالات القرآن ما هو أقوى منها..

إننا لا ننكر الخوارق من حيث هي، وإنما نناقش الأسانيد التي جاءت بها، ونوازن بين دليل ودليل، وإيماننا بالخوارق هو الذي جعلنا نحن المسلمين نصدق بميلاد عيسى من غير أب، فالقرآن قاطع في هذه القضية، وإذا ثبت قول الله فلا كلام لأحد..!.

والقاعدة أن خبر الواحد يُعمل به ما لم يكن هناك دليل أقوى منه فيصار إليه..

ونحن في ميدان الدعوة الإسلامية نواجه ماديين لا يؤمنون بشيء، وكتابيين يؤمنون ببعض ما عندهم ويكفرون ببعض، ومسلمين زحزحهم الغزو الثقافي عن قواعدهم فهم يتبعون كل ناعق..

ومن ثم يجب أن تكون الدعوة للأركان المستيقَنة، وأن يبتعد الدعاة عما اختلفت فيه أنظار المسلمين أنفسهم، وفي القطعيّ ما يغني عن الظنيّ، وفي الكتاب الكريم وما اشتهر من السنن غُنْية عن الغرائب والآراء الاجتهادية..

لقد راقبت الموضوعات والشواهد التي يعيش كثير من الناس في جوها فوجدت خليطا مزعجا من مرويات نصفها واهٍ، والنصف الآخر لا يكاد يفهم على وجه الصحيح إلا نادراً، قلت: كيف تنجح دعايتنا للإسلام بهذا الأسلوب؟.

إنه على قدر العناية بالثانويات يقل الاكتراث بالأصول! ولا يجوز ربط ديننا العظيم بأمور ما دارت في خواطر الصحابة والتابعين وهم ينشرون الإسلام في المشارق والمغارب...

وحتى لا يفهم البعض أنني أنكر خوارق العادات، أذكر أنني قرأت في الصحاح من كتب السنة قصصا تنضح بالصدق والخير، عرضتْ للنبي ﷺ وهو مع صحابته، أعني أنها وقعت بين قوم مؤمنين لتزيدهم إيمانا، وإذا نقلت إلى كافرين محتْ من نفوسهم ظلماتٍ.

وفي دراستي للملل والنحل، قرأت قصصا مشابهة لها تمام الشبه في بعض الأناجيل! فعجبت لهذا الاتفاق، وقبل أن أنقل ما رواه البخاري من تكريم الله لنبيه.

أقول: إن رسولنا ﷺ اختُصَّ من بين إخوانه السابقين بمعجزة عقلية عامة دائمة أو حسب تعبيره صلوات الله عليه «أوتيت وحْيا يتلى» ثم شق طريق البلاغ وسط أنواء وأعباء تهدّ الكواهل الشداد، ولكنه وفق السنن المعتادة أدى الأمانة ونجح كما لم ينجح أحد..

وفي أثناء ذلك قد يجوع وهو يواجه أزمة، أو يرهقه حصار! وقد يُخْرَج ويُهزم في إحدى مراحل الجهاد، أو قد يتبعه الرعاع بالحجارة يُدمون قدمه وهو عائد من محاولة ضائعة الثمرة.

وهو مع وثاقة الإيمان يهتف بربه: «إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي!.

مَنْ أَوْلى بأن تخرق له العادات أحيانا من هذا الرسول؟ فانظر بعض ما يُروى من ذلك.

روى البخاري عن اسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة: أنه سمع أنس ابن مالك يقول:

قال أبو طلحة لأم سليم: لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفا أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟.

قالت: نعم فأخرجت أقراصا من شعير، ثم أخرجت خمارا لها فلفّت الخبز ببعضه، ثم دسته تحت يدي، ولاثتني ببعضه، ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ قال:

فذهبت به فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد ومعه الناس، فقمت عليهم، فقال لي رسول الله ﷺ:

آأرسلك أبو طلحة؟.

فقلت: نعم.

قال: بطعام؟.

قلت: نعم، ويظهر أن رسول الله أبى أن يأخذ ما أرسل اليه من طعام وقرر شيئا آخر جاء في بقية الحديث.

فقال رسول الله ﷺ لمن معه قوموا، فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته.

فقال أبو طلحة: يا أم سليم، قد جاء رسول الله ﷺ بالناس وليس عندنا ما نطعمهم!. فقالت: الله ورسوله أعلم.

فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله ﷺ، فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه، فقال رسول الله ﷺ:

هلمّ يا أم سليم ما عندك، فأتت بذلك الخبز، فأمر به رسول الله ﷺ ففتّ، وعصرت أم سليم عكة فآدمته، ثم قال رسول الله ﷺ فيه ما شاء الله أن يقول، ثم قال:

ائذن لعشرة، فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا.

ثم قال:

ائذن لعشرة، فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا.

ثم قال:

ائذن لعشرة، فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا.

ثم قال:

ائذن لعشرة ، فأكل القوم كلهم حتى شبعوا .
والقوم سبعون أو ثمانون رجلا ؟ .

ونترك هذه الصورة العجيبة ، ونقلب من كتاب التاريخ الوراء ، لننظر صورة أخرى مشابهة وقعت لنبي الله عيسى بن مريم ، وهو من المرسلين أولي العزم ، وقد كافح في سبيل الله وتحمّل من اليهود بلاء شديدا .

وقد كان مع عيسى حواريون آمنوا به وثبتوا معه ، وشاء الله أن يريهم آية من آياته التي أيّد بها نبيه عيسى ننقلها من كتاب « متى » لما فيها من شبه بما وقع لنبينا عليه الصلاة والسلام .

(١٤) فلما خرج يسوع أبصر جمعا كثيرا ، فتحنّن عليهم وشفى مرضاهم .

(١٥) ولما صار المساء تقدم إليه تلاميذه قائلين :
الموضع خلاء ، والوقت قد مضي ، (١٦) اصرف الجموع يمضوا إلى القرى ويبتاعوا لهم طعاما ، فقال لهم يسوع :
لا حاجة لهم أن يمضوا ، أعطوهم أنتم ليأكلوا (١٧) .
فقالوا له : ليس عندنا ها هنا إلا خمسة أرغفة وسمكتان (١٨) .
فقال ائتوني بها إلى هنا (١٩) فأمر الجموع أن يتكئوا على العشب ، ثم أخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره نحو السماء وبارك وكسر وأعطى الأرغفة للتلاميذ ، والتلاميذ للجموع (٢٠) فأكل الجميع وشبعوا ثم رفعوا ما فضل من الكسر اثنتي عشرة قفة مملوءة (٢١) والآكلون كانوا نحو خمسة آلاف رجل ، ما عدا النساء والأولاد .

ونلفت الأنظار إلى أن تلك الخوارق لم تقع بين كفار يجحدون ، وإنما وقعت بين مؤمنين استقر في صدورهم اليقين ، وهنا قد يسأل سائل : ألم يكن الكفار أولى برؤية هذه الخوارق ليؤمنوا ؟ ونجيب بأن الذين كفروا من قبل قد قست قلوبهم واستغلقت عقولهم فهم لن يتغيروا برؤية المعجزات التي يظهرها الله على أيدي رسله ، وإذا رأوها فسيقولون : سحر ، أو شعوذة ، أو أي شيء آخر .

ولعل ذلك هو السر فيما رواه متّى عن عيسى عليه السلام لما طُلبت منه آية: «جيل شرير فاسق يلتمس آية، ولا تعطى له آية إلا آية يونان «يونس» النبي، وتركهم ومضي».

وقد أكد مرقس هذا المعنى [٨: ١١ - ١٢] فخرج الفريسيون وابتدأوا يحاورونه طالبين منه آية من السماء لكي يجربوه، فتنهد بروحه وقال: لماذا يطلب هذا الجيل آية! الحق أقول لكم: لن يعطى هذا الجيل آية..».

وفي الأجيال المتعصبة المستكبرة على الحق يقول الله تعالى:

﴿إن الذين حقّت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾(١).

إن عالم المرويات ممدود الأرجاء، وما نحب أن يشتغل كل الناس بالتجوال فيه، فإن ذلك لا يصلح له إلا رجل يجمع بين أمرين: الأول معرفة المقبول من المردود، الثاني معرفة الصحيح على وجهه المراد، فقد رأيت ناسا يروون الحديث الصحيح بيد أن معناه في عقولهم باطل! وقد أصاب الإسلام من هؤلاء ضرٌّ شديد!.

بل إن فساداً واسعا وقع في عالم الاقتصاد، وفي فقه العلاقات الدولية، وفي العلاقات بين الجنسين، وفي بيان أصول الحكم بسبب العوج في الفهم أو القصور في الفقه اللذين يصيبان مشتغلين بالمرويات.

والواجب أن تزداد عناية المسلمين بفقه الكتاب، فإن النكبة في هذا الفقه لا يُداويها الاستبحار في السنن، كما أنه لابد من ذَوْدِ العقول الكليلة عن العبث بما يقع بين يديها من مرويات، فهي تسيء أكثر مما تحسن.

---

(١) الآية: ٩٦، ٩٧ من سورة يونس.

أمَةٌ
بخيرٍ
يَجِبُ
أنْ
تُؤدى
رسَالتها

أمة بخير يجب أن تؤدي رسالتها

بعد النومة الطويلة أو الاغماءة الطويلة التي أصابت المسلمين في الأعصار الأخيرة، جاءت يقظة مرجوة الخير، وشرع العامة والخاصة يمسحون عيونهم ويحركون أعضاءهم ويعملون على استئناف المشوار العتيد! .

ونظرت إلى أمتي ترمق المستقبل بأمل، وتنشط كي تتقدم وتزاحم وتسبق، ولكنها لا تتقدم خطوة حتى تحاصرها العقبات، وتقفها المتاعب! والمحزن أن هذه المتاعب من عند نفسها أكثر مما هي كيدُ العدو وسعيه لهزيمتها..! .

لقد شعرت بأن أمتنا نسيت رسالتها، أو جهلت هذه الرسالة من زمان بعيد، إن هذه الرسالة من وضع الله لنا لا من مزاعمنا لأنفسنا، أو دعاوانا لجنسنا..! .

والأمة التي لا تعرف لها هدفا قد تتحرك في موضعها، أو تتحرك في اتجاه مضاد، أو تصيب نفسها وهي تريد إصابة غيرها، إن الطيش يحكمها لا الرشد! .

وقد حدد القرآن الكريم رسالتنا في هذا العالم فقال: **﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾**(١) أهي دعوة نظرية إلى الخير تظهر في الملصقات والكتيبات والنشرات العامة؟؟ لا؛ يجب أن تقدم الأمة من نفسها نموذجا حيا أو أسوة حسنة لما تدعو إليه **﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون، وجاهدوا في الله حق جهاده..﴾**(٢) .

---

(١) الآية: ١٠٤ من سورة آل عمران.

(٢) الآية: ٧٧، ٧٨ من سورة الحج.

إن عمل الخير والدعوة إلى الخير، سمات الأمة الظاهرة، وملكاتها الباطنة، ووظيفتها الدائمة، وشهرتها التي تملأ الآفاق، وإجابتها عندما تُسأل عن منهجها وغايتها ﴿ وقيل للذين اتقوا: ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: خيرا ﴾! [1]

وما يُنتظر من أمة تحمل رسالة السماء وتتبنى دعوة الحق إلا أن تكون حارسة للشرف، مترفعة على الدنايا، متواصية بالمرحمة، منظوراً إليها محليا وعالميا بأنها سند المظلوم وجار المستضعف، ويجب أن تكون قديرة على ذلك وسمحة به!!.

وقد بين الله أن الأنبياء - وكذلك أتباعهم - ليسوا باعة كلام ولا أدعياء فضل بل هم كما شرح في كتابه ﴿ وأوحينا إليهم فِعْل الخيرات وإقامَ الصلاة وإيتاءَ الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾ [2].

فهل تولت أمتنا هذا المنصب؟ أو هل تأهلت له بفقهها ومسلكها؟ أم زاحمت غيرها على طلب المتاع والتعلق بالدنيا؟ الذي يبدو لي أن المسلمين شعوبا وحكومات - هبطوا دون المستوى المنشود، بل هبطوا دون مستوى غيرهم ممن لم يشرفهم وحي، ويكلّفوا بحمل رسالة!.

والمرء قد يمشي الهويني غير آبه لما أمامه إذا كان خالي البال لا يشغله واجب محدد، أما إذا كان في سباق مهمّ ومع أنداد قادرين أو خصوم قاهرين فإنه يحثّ الخطى ويجمع العزم ويتجاوز العقبات..

والمسلمون منذ بدأوا تاريخهم ما صفا لهم الجو، ولا خلا لهم الطريق..! فكل استرخاء أو تخاذل سيستغله شياطين الإنس والجن للنيل من الحق وتركه في المؤخرة والانفراد دونه بالصدارة..

وهذا ما وقع فنحن المسلمين الآن في العالم الثالث على حين أمْسَكَ بزمام الحضارة من ينكرون الألوهية أو من يتخيلونها «عائلة مقدسة»..

---

(١) الآية: ٣٠ من سورة النحل (٢) الآية: ٧٣ من سورة الأنبياء.

وهم لم يعوقونا عن الانطلاق في أغلب مراحل تخلفنا، بل نحن الذين فرطنا وتكاسلنا، وتركنا المجال فسيحا أمام غيرنا فملأه لما أخليناه

إن عناوين الخير والمعروف – وهي معالم رسالتنا – لم تساندها حقائق قائمة، فكانت النتيجة أن تلاشى صدى هذه الكلمات النبيلة، فاختفى وقعها من نفوس السامعين، وظنت أمم كثيرة أن المسلمين طلاب شهوات أو قطاع طرق، وأنهم يوم يملكون القوة يسخرونها لإعلاء جنس، وتحقيق أمجاد وطنية أو قومية، وهذا كله إفك! بيد أن المسئول عن انتشار شائعاته أصدقاء جهلة أو عجزة، كما يحمل المسئولية أيضا أعداء مُرجفون مُريبون.

تدبرت هذه الآية ﴿**قل: إنما أنذركم بالوحي**﴾[1] والآية الأخرى ﴿**فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا**﴾[2] فرأيت أن صاحب الرسالة لا يفتح العقول بسكين إنما يفتحها بكلمات الله المنيرة التي تنزلت عليه، وأنه منهيّ عن طاعة الكافرين مأمور أن يجاهد بهذا القرآن من تنكروا له واعترضوا سيره...

وأعلم بدراستي وتجربتي معا أن هناك مستكبرين يستبيحون غيرهم ويجتاحون حقوقه المادية والأدبية، وأن الاستسلام لهؤلاء وضاعة، وترك الحقيقة تداس تحت أقدامهم جريمة! إن هؤلاء لابد من مقاومتهم وحشد أهل اليقين لحسم شرهم!.

في هؤلاء يقول الله لنبيه: ﴿**فقاتل في سبيل الله لا تُكَلَّفُ إلا نفسك وحَرِّض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا، والله أشد بأسا وأشد تنكيلا**﴾[3].

---

(١) الآية: ٤٥ من سورة الأنبياء (٢) الآية: ٥٢ من سورة الفرقان.

(٣) الآية: ٨٤ من سورة النساء.

تدبّر هذا السياق، وكيف أبرز عدوان المعتدين، وكيف يستعان بالله على كفكفة شرهم، وكسر بأسبهم! إن المؤمنين يلقون هجوما فلا يجوز لهم أن يفروا أمامه! ومن أجل الله وفي سبيل الله يتحملون أعباء هذا التصدّي.

إننا لم نبدأ عدوانا، لقد أنذرنا بالوحي، وجاهدنا بالكلمة، وشرحنا بغيتنا وهي تحقيق الخير والمعروف في الدنيا، وتحويل الأرض - حيث قدرنا - إلى ساحات عبادة لله وتراحم بين عباده لا يدع في المجتمع جائعا ولا عاريا ولا محروما ولا محقورا...

تلك أهداف أمتنا كما رسمها القرآن الكريم ﴿**الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر**﴾(١).

لكن المأساة الكبرى أن هذا الهدف نسيه من فيه، ولم يشغل نفسه ولا قومه بالإعداد العلمي الواسع له، ولم يكلف نفسه محو الشبهات التي أثيرت عمدا حول مقاصده.

فمضت الأمة في طريق مليء بالغيوم، وأخذت تقاتل دون أن يكون بين يديها عَرْضٌ جيد للحق، وتطبيق أجود لمبادئه، وكنت أقرأ وأنا طالب أن علاقتنا بغيرنا هي الإسلام أو الجزية أو الحرب!!!!.

إن الذي أرسل هذا الكلام على عواهنه نسيَ الوظيفة الأولى للأمة، وهي الدعوة السليمة وإرسال أشعة كاشفة عما تريده للعالم من رشد وسعادة..

قد يدهش امرؤ لهذا القول ويردّ على عجل: كان آباؤنا يُدْعون إلى عقيدة التوحيد ويستندون في جدالهم عنها إلى مواريثهم من كتاب وسنة، فلا عذر لأحد.

---

(١) الآية: ٤١ من سورة الحج.

ونمضي نحن في توضيح ما نعني! إن عقيدة التوحيد جذع شجرة باسقة مزهرة مثمرة لها سبعون غصنا، أو سبعون شعبة يلتمس الناس تحتها الظل والجني، لماذا جعلنا هذه العقيدة خشبة جرداء لا تغري أحدا أن يأوي اليها؟ لماذا ترك المجال مفتوحا أمام الأعداء يزعمون أنها شجرة شوك لا زهر فيها ولا ثمر؟.

إن الخاصة الأولى للأمة الخاتمة أنها غيورة على الحقيقة، لا تطيق تشويهها ولا إغفالها، ومن ثم فهي لا تسكت عن أمر بمعروف أو نهي عن منكر فإذا بُليت هذه الأمة بسلطات تكمم الأفواه، وتدع العامة والخاصة لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا فهل هي بذلك الصمت الجبان تبلغ رسالة الله؟ أم هي تقطع الطريق إليها..

لقد أخذ الأحرار على ملك فرنسا لويس الرابع عشر أنه قال: أنا الدولة! يعني أنه وحده المسئول عن شؤونها لا شريك له.

فإذا كان «السلطان» في بلاد الإسلام يردد بلسان الحال أو المقال هذه الكلمة، فما الفرق بين دولة الإيمان ودولة الكفر، وأين يجد الناس ساحة المساءلة والشورى، والأخذ والرد دون تهيّب ولا توجُّس؟؟.

إن العقيدة الإسلامية أساس حضارة راشدة راقية، ولا يسوغ أن يتدرَّع بها من يخدمون مآربهم وأغراضهم، ونحن مكلفون بتبليغ رسالة نازلة من السماء لا حمل أوضاع من صنع الناس.

أعرف ويعرف غيري أن الإمامة العظمى في الإسلام احتكرتها ثلاث أسر خلال اثنتي عشر قرنا، أفلمصلحة الإسلام وعلى هدي تعاليمه تم هذا؟ قد نقول: إن هذا الخطأ لم يؤثر على حقيقة الدين أو على مساره، وهذه إجابة تتطلب وقفة طويلة وشرحا مستفيضا، لا سيما أن ركام الأخطاء الذي آل الينا على مر القرون جعل المسلمين المعاصرين يضطربون في الفهم والمنهج، بل جعلهم يظنون أن الحكم من نوازل القدر التي لا تُردُّ، وأن استقباله كاستقبال الآفات والمصائب الوافدة يكون بالصبر والاسترجاع!.

وقد أورثتهم هذه الجبرية الخرافية استسلاما واستكانة لضروب الحكم الاستبدادي قلّما يعرفان في جنس آخر ... !.

إن الدولة صاحبة الرسالة تكرس قواها المادية والأدبية في الداخل والخارج لإنجاح رسالتها وشرح حقائقها على نحو رائق جذاب، وليس يجديها زخرف القول إذا كانت صورتها الداخلية دميمة، إذ الناس بعد التروّي والتأمل يعوّلون على الموضوع لا على الشكل..

والوظيفة الأولى لدولة الاسلام أن تُرِي الأمم الأخرى آفاق الخير الذي تدعو اليه مشرقة في حياتها هي! في أخلاقها وتقاليدها وعباداتها ومعاملاتها وآدابها وفنونها وملاهيها وأسواقها وقراها ومدنها، أى في جميع أنشطتها التي تكشف عن أعمالها وآمالها..

إننا - باسم الإسلام - ندعو إلى الخير ونفعله، فما وزن هذه الدعوى العريضة وما آثارها؟.

إنني أقرر مطمئنا أننا لم نحسن تبصير الجماهير الهائمة في شتى القارات، وليست لدينا أجهزة قديمة قائمة من قرون على البلاغ المبين، والذين اختطفوا مناصب الإمامة العامة حقبا مديدة كانوا أنزل رتبة من أن ينهضوا بهذا العبء!.

إنهم لم يكونوا عالمين، ولم يكن للراسخين في العلم مكانة لديهم.. وقد حسب لفيف من العرب أن الإسلام ثروة قومية يمكن أن ينتفع بها الجنس العربي - كثروة النفط مثلا - فتركوا الاسلام يتمدَّدُ بقواه الذاتية، وبالجهود الشعبية، وانشغلوا هم بمراسم الحكم ومطالبه..

فلما وقعت الخلافة في يد الأتراك بدأوا بداية حسنة في خدمة الإسلام ثم انتقلت اليهم عِلل الخلافة العربية فضاعوا وأضاعوا..

وطلع علينا هذا العصر الكئيب، فإذا رايات الإسلام تُطوى علانية تحت شعارات العروبة التي تعدّ محمدا بطلا قوميا (!) وأمام زحف الملل والفلسفات الأخرى التي خلا الجو لها فباضت وأفرخت..

تلك خسائر فادحة نزلت بأمتنا ورسالتنا، والعلاج أن نعرف: من نحن؟ وما رسالتنا؟ وكيف نؤديها؟ وكيف نتخلص من أخطائنا؟ وكيف نستفيد من تجارب النصر والهزيمة، والمدّ والجزر...

ولنعلم أن عباد الله في المشارق والمغارب ليسوا مستعدين أن يتبعوا قيصرا جديدا يلبس عباءة الإسلام، وأن علماء الدين الذين يشغبون على الشورى ليسوا علماء ولا متدينين، إنما هم قَذًى تجب تنحيته عن الطريق...

وأعرف أن الاستبداد السياسى عاد إلى المجتمعات من الباب الخلفي في شكل تنظيمات دستورية مزوَّرة! والحقيقة لا تخفى وراء هذه الألبسة الخادعة مهما تراكم حولها ذباب المنتفعين والمنافقين...

الإسلام وأمته أكبر من هذه المظاهر! ولن يصدّق الناس أننا رجال أحرار، ننحني وحسب أمام الواحد القهار، ما بقيتْ صفوفنا يتقدمها قزم تغضي أمامه العيون، وتخرس الألسنة لأمرٍ مَّا...!.

وفي عصرنا هذا تتودّد المذاهب الأرضيّة إلى الناس بكفالة ضروراتهم البدنية، وإشباع نهمتهم منها! والانسان بطبيعته يكره ذل الحاجة، ويضيق بكبت لا نهاية له، ويتعلق بأي نظام ييسر له الضرورات، ويعده أو ييسر له بعض المرفهات...

هل تجهّم الاسلام لهذه الطبيعة البشرية؟ إن إيراد السؤال على هذا النحو خطأ! هل لم يسارع الاسلام إلى كفالة هذه الحقوق البشرية؟.

في صدر حياتي ألفت بضعة كتب شرحتْ تلك القضية، كنا– أنا وسيد قطب، ومصطفى السباعي – نذود الجماهير المتطلعة عن اعتناق الشيوعية، لأن بريقها استهواهم، فقدّمنا البديل من تعاليم الإسلام..

وانما استهوى الناس هذا البريق لأن فوضى التملك من حرام تسرّبت إلى أغلب الأموال، ولأن تبلّد المشاعر بإزاء آلام المحرومين قطع أوصال المجتمع، وبعثر في أكنافه بذور الحقد!.

وكثير من المشتغلين بالثقافة الإسلامية يحسبون أن الإسلام بعدما قضى على الأصنام في الجزيرة العربية قد أدّى الرسالة وبلّغ الأمانة وليعشْ الناس حسب ما يرغبون من الناحيتين الاقتصادية والسياسية ففي الأمر متسع وليكن ما يكون.. !!!.

وهذا الجهل الفاضح أثقل الأفكار والأقدام، وأحكم حولها القيود، فكانت العاقبة أن وثب العالم إلى الأمام بخطوات فِساح، وضبط شؤون الحكم والمال وفق ما يرى مصلحته، أما المسلمون فوقفوا أو تخلفوا، ومن أراد بهم خيرا حاول إلحاقهم بقطار الشرق أو الغرب، لأنه لا يعرف حقيقة الدين من رجال قاصرين، ومن هنا توجّب على الحكومة الإسلامية أن ترقب سير المال في الحياة العامة، وأن تدرك خطورة انحرافه أو طغيانه على العقائد والأخلاق..

ولا أجد أي حرج في اقتباس ما استحدثه البشر من أنظمة ووسائل ماية الفرد من طغيان الاستبداد أو رأس المال..

والواقع أن العصور الحديثة لها اجتهاد مثمر ناجح في تنظيم الشورى، وفي إدارة الأعمال، وفي حماية الفقراء والكادحين...

ونقل هذه الوسائل إلى بلاد الإسلام ليس بدعة ضلالة كما يزعم المتدينون الجهال، بل تكاد تكون واجبا حتما بعد عهود التخلّف والضياع التي رانت علينا..

ومن السفه استبقاء الشورى في طورها الساذج أيام سقيفة بني ساعده واستبقاء العطاء يدا تدفع ويداً تأخذ وحسب!.

إن العمران البشري اتسعت دائرته وتعقدت أحواله، وعلينا مواجهة ما جدَّ بأقضية ذكية مجدية، وما فكرنا يوما في تعطيل نص، أو الشذوذ عن قاعدة، وإنما سعينا إلى تجاوز عصور الانحطاط والهزيمة التي طال ليلها، مستندين إلى مواريثنا المحفوظة وحدها...

ومن واجب الدولة ضبط العلاقات بين الجنسين داخل إطارها الصحيح، فإن ذوي الفطر السليمة ضاقوا بالتبرج الجاهلي الذي يصحب الحضارة الحديثة، وما انتهى اليه من انحدار وتهتك..

وقد قلنا: إن العجز الفكرى والنفسي عند لفيف من المتدينين من وراء هذا التطرف الحيواني الكاسح! فهم لا يفهمون المرأة إلا وسيلة متعة خاصة، وينكرون عليها إنضاج ملكاتها الروحية والعلمية، ولا يعون أن لها أي حصة في ميادين التربية وآفاق المجتمع، وخدمة الدين والدولة..

وقد أعياني الحديث مع شباب يوجب تغطية وجه المرأة ويديها، ويحرّم عليها الجُمَع والجماعات، ويذهب إلى جملة من المرويات الشاذة أو المنكرة كي ينزل الدين على رأيه! قلت لهم: إن عملكم هذا سيجعل النهضة النسائية تزيغ عن الدين، وتلهث وراء الغرب.

وعندما تقولون: لابد من ضرب النقاب على الوجه فسوف يسحب النساء الخمار عن الرؤوس، وعندما تقولون: لابد من تخبئة الأيدي داخل قفاز فسوف تتعرّى السواعد والأيدي جميعا، إن الغلوّ يستتبع الغلوّ، إنكم تكذبون على الإسلام من جانب وهنّ يكذبن على الإسلام من جانب آخر، وكلاكما شر من صاحبه!.

وأرى أن تدخل الدولة في موضوع الزواج، وتكوين الأسر، فإن النفاق الاجتماعي وتقاليد الرياء جعلا من عقد الزواج شيئا يقصم الظهور، ويستدعي التريث والإرجاء، وإلى أن يتم بعد لأي يقع في صمت وخفاء ما يندى له الجبين، وما لا يقبله دين!!.

وَثَمَّ أمر جدير بالإبراز والإثارة! إن السياسة الفاسدة تبقى وتنمو في جو الثقافة الفاسدة، وهي إذا لم تجدها سعت لخلقها واحتضان رجالها..

وأرى أن كثيراً من المعارف المسمومة، والفتاوي الكاذبة، والأحكام الطفيلية، قد عاشت وغلظت في حضانة الحكم الفردي والاستبداد السياسي، وقد لاحظت أن جماهير المسلمين خلال عدة قرون احتبست في مجادلات لا تساوي قلامة ظفر، وهاجت أعصابها في خلافات محمومة لا طائل تحتها...

وذلك في وقت كانت رقعة الإسلام تنكمش، وأعداؤه يشتدون وشؤونه العظمى يبتّ فيها التافهون...

إنني شعرت بأن هذا مراد، وإذا لم يكن مخططا فقد تم لمصلحة الطاغين الذين يعنيهم أن تنشغل الأمم عنهم وعن مباذلهم.

وفي عصرنا هذا تقوم شتي الفنون، والألعاب الرياضية بما يشبه هذا الدور..

ولا أدري لماذا تهتاج أمة لهزيمة رياضية ولا تهتز لها شعرة لهزائمها الحضارية والصناعية والاجتماعية؟؟.

والحكم الإسلامي في قرون خلت لم يرتفع إلى مستوى الإسلام نفسه، فلا عجب إذا فشل في تبليغ رسالته وفي الدفاع عنه عندما تَعرِض له الأزمات..

وقد رأينا الخلافة العباسية في الزحف الصليبي الأول، لقد عجزت عن حشد طاقات الأمة بل عن جمع صفوفها، فإذا الحملات القادمة من الغرب تعوم في دمائنا، لا يردها رادّ! وبقيت الخلافة الواهنة تترنّح حتى ماتت تحت أقدام التتار المتعاونين مع الصليبية في السرّ والمسلمون لا يدرون!.

وتكررت المأساة نفسها مع الخلافة العثمانية، حَذوك النعل بالنعل! ونجح الاستعمار الصليبي الثاني في نبذ الخلافة العظمى (!) والخليفة المسكين، نبذ النواة.

ودفعت جماهير المسلمين من دمها ومن كرامتها ثمن فساد السياسة والثقافة فى عالمنا الإسلامي المريض!.

وقد تحدثتُ عن هذا التاريخ بشيء من التفصيل في كتابي «الدعوة الإسلامية تستقبل القرن الخامس عشر» وما كررت الإشارة إليه هنا إلا لأني رأيت أناسا يعملون في الحقل الاسلامي لا يعلمون معاقد الدين، ولا غاياته العظمى، وهم يجتهدون في استحياء العلل القديمة، يحسبونها أسباب نهضة وما دروْا أنها أسباب البوار..!!.

إن الدولة الأمينة على الرسالة الإسلامية عليها واجبات ثقيلة نحو الأمة التي تقوم على شؤونها، ونحو الأجيال الناشئة التي تقوم على تربيتها يمكن إجمالها في النقط الآتية:

أ - تجديد علوم الدين، وتبصير طلابه بالحقائق الرئيسية، وتجاوز القضايا والخلافات التي خلقها الفراغ والترف في بعض الأزمنة، وبيان ما هو قطعي وما هو ظني، وما هو أصليّ وما هو فرعيّ، وتناول المذاهب المختلفة على أنها وجهات نظر ليست معصومة من الخطأ..

إن تدريس الدين الآن بحاجة إلى إعادة نظر! فهناك معلومات تقدم للكبار فقط تشحن بها عقول الصغار، وهناك آراء للرجال تقدّم على أنها وحي معصوم أو نص ثابت! وهناك أركان للأخلاق والسلوك تراجعتْ لتحل محلها صور فقهية ثانوية!.

ب - إن العناية بالتربية تتطلب محو الخصومة القائمة بين الفقهاء والصوفية على أساس تجريد التصوف من البدع والخرافات التي التصقت به، وردّه إلى كتاب الله وسنة رسوله ردًّا يدرِّب الناس على مقام الإحسان، أعني مراقبة الله ومشاهدته..

إن الإنسان لا يرقى أبدا بعقله وحده، فكم من ذكي العقل غزير العلم تراه خبيثا لا تؤمن أطماعه، وكم من منافق عليم اللسان.

وأعرف أن عددا من المنتمين إلى التصوف دعيٌّ لا ضمير له، غير أن هذا لا يزهدنا في تعهد القلوب بما في هذا العلم من حِكَمٍ ثمينة، وتجارب رقيقة...

ولست أحب أن ينفصل العلم عن التربية الروحية، ولا أن تنفصل التربية الروحية عن العلم فلا قيمة لأحدهما دون الآخر.

جـ - جماهير المسلمين فقيرة إلى تدريب مستمر على الشؤون المدنية، وهي بحاجة ملحة إلى مهارات كثيرة في ميادين الحياة العملية، وتخلّفها في هذا المضمار يهزم الإسلام وينال من قدرته على قيادة الناس

وإنه ليحزنني أن يكون المسلم - لغير سبب واضح - أقل من غيره إجادة للحرف المختلفة.

والحقُّ أن ما نراه الآن هو أثر التديُّن المغشوش الذي سيطر على المسلمين حينا من الدهر، وجعل فهمهم قاصرا للدين والدنيا معا.

د - أرى تنظيم فرق للفتوّة، أو بتعبير العصر فرق للكشافة والجوالة، إن الرياضة البدنية تصنع الأجسام والنفوس صناعة حسنة، وتنشيء مشاركات اجتماعية طيبة.

والاهتمام بالرياضة لا يكون بإقامة بعض الأندية المتخصصة في لعبة كذا أو كذا.. ربما أفاد ذلك بعض المنتمين لهذه الأندية، على حين تتحول الجماهير إلى طوائف من المشجعين العاطلين..!!.

وقد راقبت الفرق العربية التي تذهب للمباريات العالمية فوجدت أغلبها يعود فاشلا صفر اليدين من أقل الجوائز.. أما الدول العظمى فتظفر بأغلى الجوائز، وتكسر أرقاما قياسية كما يقولون، فأدركت أننا متعبون جسمانيا وروحانيا على سواء!.

وعلاج ذلك العجز يبدأ من تصحيح القاعدة الشعبية نفسها.

فقد تقول: ثم ماذا؟ بعد أن تنشأ للإسلام أمة قوية الروح والجسد، قوية العقل والعاطفة.

أجيب: لن تكون لهذه الأمة مطامع جنسية أو مادية، ولن تزعم أن الدم الآري أفضل من الدم السامي، أو أن أولاد يعقوب أشرف من أولاد اسماعيل.

إن رسالتها أن تكون مع المظلوم حتى ينتصف، ومع المحروم حتى يستغني، ولن تكون لها قداسة إذا أهانت الحق، أو استوحش الحق في جنباتها.

رسالة الأمة - كما شرحها كتابها - فعل الخير والدعوة اليه، عمل المعروف ومحو المنكر!.

ومعنى الخير مركوز في فطرة البشر وقد يضبطه الوحي الإلهي ويزيل ما يشوبه من لبس، وكذلك معنى المعروف، فإن العقل والنقل يتطابقان غالبا على إبرازه ودعمه.

وإيراد رسالة الأمة تحت هذا العنوان مقصود حتى يعرف القاصي والداني ما هي وجهتها وما هي شرعتها؟.

وعندما نقوم وفق معالم أسلافنا فستكون تلك صبغتنا في المجتمع الدولي، وقد نسفك دماء أبنائنا لنحرر الزنوج في جنوب إفريقية لا لشيء إلا لإرضاء الله وإقرار الحق!!.

إن أسلافنا الأوائل عندما قاتلوا قديما كانت تتملكهم هذه النزعة النبيلة، ومن زعم أن الاستعمار الروماني أو الفارسي كان جديرا بالمهادنة فهو مفترٍ جريء.

وما أنكر أن المسلمين في أعصار شتى ملك أمرهم من ظلمهم وظلم الناس معهم، وسوَّأ سمعتهم وسمعة الدين الذي نبت بين ظهرانيهم!.

على أننا لم نفلت وما يفلت غيرنا من عقاب الله، ونحن نقرأ في كتابنا أن المستقبل لا تصنعه الأمانيّ الخادعة، وأن مزاعمنا ومزاعم غيرنا لا وزن لها عند الله الذي يقول: ﴿ **ليس بأمانيكم ولا أمانيّ أهل الكتاب من يعمل سوءا يُجْزَ به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا** ﴾[1].

إن ديننا يزن الأعمال بمثقال الذرة لا يقبل الفوْضى الهائلة التي تقع بين الناس، سواء كانوا مسلمين، أم كانوا هودا أو نصارى..

(١) الآية: ١٢٣ من سورة النساء.

أمـا

لهــذا

الحقـد

من

حــدٍّ؟

أما لهذا الحقد من حدٍّ؟

كان لابد من رسالة جديدة تصحح الأخطاء الجسيمة التي انتشرت بين الناس! ربما عرف أصحاب العقول المتوسطة أن الأصنام شيء لا ينفع ولا يضر، وأن عبادتها ضرب من السفه البيِّن، أفتظن أصحاب هذه العقول يكتشفون الأغلاط السيئة التي دسَّها أهل الكتاب في أطواء كتبهم؟ إنهم قد يستبشعونها وقد يتحيرون أمامها وقد يستبعدونها في أعماقهم وقد يحاولون إمرارها!!.

وذلك ما حدث، ومن ثم شاع بين الناس أن الله يفعل ويندم، ويذكر وينسى، ويغضب فيطيش به غضبه، وأنه قد يتجسد ويمشي على الثرى ويأكل ويشرب ويصارع واحدا من خلقه... الخ.

كما شاع أن المرسلين من لدنه يسرقون ويزنون ويسكرون ويحتالون ويقتلون الخ، فإن يك هذا شأن قمم الخليقة فماذا ينتظر من السوقة؟

كان لابد من رسالة جديدة تشرح الصواب وتمحو الضلال، وتنصف حقيقة الألوهية، وتبرىء منصب النبوة، وتضع الجماهير أمام الحق الذي تاهوا عنه دهرا طويلا.

وما كان يقدر على هذه المهمة الصعبة أحد قط، إلا محمد والوحي الذي جاء به **﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة * رسول من الله يتلو صحفا مطهرة * فيها كتب قيمة﴾**(1).

ومع أن الكهنة على اختلاف رتبهم تفرقوا في أقطار العالم ينشرون أفكارهم العليلة، فإن القرآن الكريم ناداهم برفق، ولم يكشف مقالتهم السيئة بل قال:

---

(1) الآيات: ١، ٢، ٣ من سورة البيّنة.

﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدي به الله من اتّبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾(١).

إنه لم يذكر بتفصيل ما هم به مُتَّهمون! مع أن تهمتهم هي الافتراء المنكور على الله ورسله، وذلك تأليف لهم، وإغراء بالعودة إلى الحق، ومنع للإحراج!.

ومع ذلك فلا يزال القوم يخاصمون القرآن ونبيه الهادي الكريم، ولا يزالون يطيرون شرقا وغربا ومعهم صحائفهم المعتمة ملأى بما يسخط الله ويحط من أقدار النبيِّين!.

لقد كانت رسالة محمد حدّا فاصلا بين عهدين، عهد اعتكر فيه رونق الدين وغلبته شوائب دخيلة.

وعهد تألق فيه التوحيد، وتقرر فيه ما ينبغي للذات العليا من تمجيد وتنزيه، كما تقرر فيه ما يجب على البشر من انقياد لله وإنفاذ لأوامره يتقدمهم في ميدان العبودية رسل صالحون، أتقياء شرفاء ﴿عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾(٢).

يستحيل أن يحقد على محمد رجل له ثقافة محترمة أو عقل بصير لماذا يحقد عليه؟ ألأن كتابه يصف الخالق الأعلى فيقول:

﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض﴾(٣) ؟ أو لأن الله تبارك اسمه يتحدث في هذا الكتاب عن نفسه فيقول:

---

(١) الآيات: ١٥، ١٦ من سورة المائدة.

(٢) الآيات: ٢٦، ٢٧ من سورة الأنبياء.

(٣) الآية: ٢٥٥ من سورة البقرة.

﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تُفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾[1].

أهذه هي الجريمة التي ارتكبها محمد؟ أو كان من الممكن أن يكون رجلا صالحا لو أنه وصف الله بالغفلة عما يقع أو الندم على ما فعل؟..

هل في الدنيا كتاب أثنى على الله بما هو أهله، وأسند له صفات الجمال والجلال، وخصَّه بالأسماء الحسنى، وجعل الأفئدة توجل من خشيته، أو تنشرح بمحبته كهذا القرآن الكريم؟ أذلك ما يجعل أهل الكتاب يُشَرِّقون ويُغَرِّبون للتنفير منه والتحامل على صاحبه؟.

الحق أني أنظر إلى رجال الكهنوت الناقمين على محمد فلا أرى في سيرتهم ولا في سريرتهم إلا ما يثير الزراية.

إن اليهود عاشوا في جزيرة العرب عدة قرون قبل ظهور الإسلام فماذا فعلوا ضد الوثنية؟.

لو أن عشر تعصبهم للإسلام وبغضهم لرسوله وجُّهوه ضد الجاهلية الأولى لزالت أو خف ظلامها، إنهم عاشوا على استبقائها وإيقاد الفتن بين أهلها؛ وكأنما كانت مهمتهم أن يختالوا بما ورثوا من علم مغشوش، وأن يعدُّوا الأميين غنيمة باردة يأكلونها باسم الله خالق الشعب المختار.

أتبكي الإنسانية على دين تلك حقيقته وهذا تاريخه؟.

ولو أن رجال النصرانية أحسنوا السير على منهج عيسى لكان لهم مع العهد القديم سياسة أخرى، ولكان لهم مسلك أهدى وأرشد، لكن غلب عليهم أمران مَعيبان! إثبات التجسد الإلّهي، وتجويز السقوط على الأنبياء.

---

(١) الآية: ٦١ من سورة يونس.

ولم فعلوا ذلك؟ ليسهل تصوُّر إله إنسان أو إنسان إله! وليسهل قبول قضية القربان الذبيح فداء لخطايا لم ينج منها أنبياء الله أنفسهم!!

وقد كرهوا أشد الكراهية صيحة محمد وهو يقول - بأمر الله -

﴿قل: أغير الله أبغي ربًّا وهو رب كل شيء ولا تكسب كلُّ نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وِزْرَ أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾(1)

إنني لا أتبع محمدا لأنني وازنت بينه وبين المنتمين إلى السماء والمحدِّثين عن الله فوجدت كفته أرجح، إن ذلك يَكفي لأتباعه لو كنت ممن يوازن بين المرويَّات، ويؤثر جانبا نزيها على جانب متهم..!!.

الأمر عندي أن الإيمان مصدره الأول العقل اليقظانُ النقَّادُ الباحثُ عن الحق فإذا وجده تشبث به إلى آخر رمق.

وقد عرفت الله وامتلأ فؤادي بأنه عظيم، عظيم لأني فكرت وفكرت ثم وجدت أن الله الذي آمنت به لا تتوفر الأوصاف الواجبة له إلا في كتاب محمد!.

القرآن هو الكتاب الفذ الذي لا يعرفُ غَيْرَه عصرُ العلم ومحمد هو الانسان الذي تتجسد فيه أشواق البشر إلى التسامي والروحانية والارتباط بالله.

وذاك سرّ بقاء الإسلام إلى يوم الناس هذا، وسر خلوده إلى يوم يبعثون! مع أن الظروف التاريخية التي اكتنفته تشبه العواصف التي تعرقل سير السفينة!

---

(1) الآية: ١٦٤ من سورة الأنعام.

وعندما أرمق الماضي أجد الإسلام خلال سنيه العشرين الأولى أجهز على الوثنية العربية التي قاومته أشرس مقاومة، ثم أجهز على المستعمرات اليهودية في الحجاز وقلّم أظافر اليهود عسكريا، وقبلهم في دولته أفراداً لا يقدرون على كيد!.

أما الصليبية فإن مقاومتها للإسلام ظلت متقدة النار خلال القرون التي عاشها منذ ظهر إلى الآن!! أربعة عشر قرنا والخصام لا تفتر حدته ولا تنقص شدته..

أخذ هذا القتال عنوان الحرب مع الروم، ثم أخذ عنوان الحروب الصليبية؛ ثم أخذ عنوان الحرب بين الأتراك وأوربا، ثم أخذ عنوان الاستعمار العالمي، واختفت العناوين وبقيت الحقائق في الكشوف الجغرافية، التي قادتها المصادفات إلى الأميركتين من ناحية وقادت إلى الهند وشرق آسيا عن طريق رأس الرجاء الصالح من ناحية أخرى..

ثم جاء العصر الأخير ومعه الغزو الثقافي، والتيارات الدولية المختلفة، والتفاف الكنيسة حول الإسلام تريد أن توجّه إليه الضربة القاتلة!!

أربعة عشر قرنا تساقطت من حولنا نحل شتى وبقيت الصليبية وحدها تحاول إخماد أنفاسنا! والدول الاستعمارية هي التي صنعت ولا تزال تصنع إسرائيل، إن الجُحر الذي نُلدغُ منه لم يتغير، والعدو الذي قاتلنا أيام الرسول في «مُؤتة» هو هو الذي يقاتلنا الآن، وقد أمسى لا يُخفي ضغائنه ولا أغراضه استهانة بنا..!!

عندما زار بابا روما «ساحل العاج» ساءلت نفسي: تُرى: ما الغرض والوضع هناك معروف؟ المسلمون من ناحية الإحصاء ضِعْف النصارى، ولكن اللغة العربية تموت أمام زحف الفرنسية! والقوى المادية والأدبية حِكْر على أعداء الإسلام! إن الأيام مُدْبرة عن المسلمين إدبارا يقبض الصدر، بل هم غرباء في أرضهم!.

وعرفت أن الأحفال الفخمة أقيمت لمناسبة افتتاح كنيسة في العاصمة تُعدُّ من أعظم كنائس افريقية..

قلت: هل يزور المسلمين المستوحشين أحد ليخطبهم في مسجد جامع؟ لا! هل هم منسيّون؟ لا.

إنهم محاصرون! مَنْ حاول زيارتهم مُنع، إما في بلده وإما في بلدهم! لأن الأوضاع العامة توجب ذلك!.

ودرست أحوال المسلمين في فرنسا وانجلترا ودول أوربية أخرى! إن ملايين كثيرة هناك تُنْتَقَص من أطرافها ومن صميمها، والمسلمون يفرحون فرحا أبله بالجماعات القليلة التي تدخل في الإسلام هناك، وينسون من يُختطف أو يُسرق أو يتلاشى في تيار المادية الجارفة.

ومن أيام التقيت – وأنا خارج من جامعة الأمير عبد القادر – بشاب جزائري يشكو لي أنَّ أخته قد تزوجها فرنسي يزعم أنه ترك النصرانية، فقلت له: قد يكون صادقا..! قال: إنه يعتنق ديانة أخرى لم أعرفها، لعلها «شهود يهوه» وأنا قلق على دين أختي! وأدركت المأساة، إن آلاف المسلمين متروكون دون حارس لتتخطفهم الأوهام، أو لتغرقهم الحضارة المادية في عبابها المَوّار فلا يظهر لهم أثر..

وفي أوربا عشرة ملايين مسلم تقريبا، ذهبوا إما فرارا من أوطان تنكرت لهم، أو طلبا للرزق، أو هم أوربيون أصلاء في ديارهم لَوَثَتْ أعناقهم الشيوعية – كما حدث في ألبانيا مثلا – والغريب أن أواصرهم تقطعت ببني دينهم، ولولا بعثات قليلة ترسلها حكومة الجزائر إلى أبنائها في فرنسا لقلت: إن المسلمين هناك قد نسيتهم الأمة الكبرى في الشرق.

إن حملات صليبية ماكرة تعمل دون ما ضجة لتذويب المسلمين في الأراضي التي هاجروا إليها وقد أدْرَكَتْ حظا من نجاح، وهذه الحملات تتمم ما تصنعه البعثات التبشيرية في افريقية وآسيا، والتي سيطرت على التعليم والإذاعة، وتكاد تصبغ البلاد بالصبغة المسيحية..

والغريب أن جماهير العرب والمسلمين مذهولة عما يراد لها، أو مشغولة بقضايا افتُعِلَت افتعالا، ومن هنا فالمستقبل محفوف بأخطار رهيبة، فهل نصْحو قبل فوات الأوان؟

قال لي صديق لم يُؤْرِقْهُ تفكيري: لقد فاتك شيء ما كان ينبغي أن يفوتك! قلت: ما هو؟ قال: ان عاطفة التدين في هذا العصر وحقيقته ليستا محل القبول والرضا، والعالم الآن يقترب من خمسة مليارات، ثلاثة أخماسهم بين شيوعي أو وثني، ومن يدري؟ فقد تقع كارثة أخرى تعصف ببقايا المؤمنين، على اختلاف ما يدينون من دين!.

والأفضل أن نداوي الإحن التي خلفتها القرون، ونصلح ذات البين، ونتعاون على إقصاء الإلحاد، وردُّ الإنسانية إلى ربها...!.

فكرت غير قليل، ثم قلت: لا بأس، إنني أبسط يديَّ لصلح لا غشَّ فيه، والعدل يسع وجهات النظر المختلفة، وقد جاء في القرآن الكريم ﴿**وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير**﴾[(١)] .

أيها الصديق لكي يكون الحوار بين الأديان سليما لا تقل للعربيِّ الطريد من داره: اعترف أولا باسرائيل ثم تعال نصطلح! علام نصطلح إذا كنت لا تعترف بوجودي ولا بحقوقي؟.

إن تعليمات عامة صدرت من جهات لا نحب تسميتها تقول لكل قلة دينية في الشرق العربي: سودي الكثرة، وأخضعيها سياسيا واقتصاديا وعسكريا إن أمكن، وموقف الموارنة في لبنان نموذج لهذا التحدّي المعيب.

وهو مثال عمَلَيٌّ للطوائف الأخرى يجب أن تقلده فكيف يقع صلح على أساس هذا التفاوت؟.

---

(١) الآية: ١٥ من سورة الشورى.

إن المسلمين في جنوب السودان يساوون في العدد من استطاع التبشير إدخالهم في المسيحية ، والمراد الآن وقبل الآن أن تكون الحكومة في الجنوب مسيحية! ويجب إهدار نظرائهم المسلمين وإهالة التراب على حقوقهم! فكيف يتم صلح على هذا الأساس الجائر؟

إنه لا بأس بحوار بين الأديان ، بل ذلك ميداننا المفضل! إن الفرار من المنطق الهادىء والجدال الحسن هزيمة نأباها على أنفسنا.

بيد أننا بداهة لا نقبل الدنيَّة ، ولا نسمح لمن يطلب منا أن نسلمه أرضنا وزمامنا وحاضرنا ومستقبلنا ، والاستعمار العالمي يريد ذلك بصفاقة...

في أوربا وأمريكا رجال نشعر بأن لهم شرفا ، وأنهم على درجة من سلامة الفطرة وإصابة الحكم ، وحبذا لو تلاقينا طويلا مع هؤلاء في مؤتمرات علنية أو سرية ، وتدارسنا كل شيء في جو من الصراحة والمودة..

يا صديقي أنا أعرف أن ظروف المسلمين رديئة وأنهم مُنوا بهزائم موجعة ، على أني أدرك سر هاتيك الهزائم كلها ، إنها من عند أنفسهم ، ولو شاءوا لصاروا إلى حال أفضل ، ومكانة أعز ثم هناك شيء آخر أريد أن أفيض فيه!

إن الإيمان نصفان: نصف عقل ، ونصف نقل!! وقد يُعذَر من لم يبلغه النقل ، أما من جحد عقله وسفه نفسه فلا عذر له!.

قال لي صديقي: ماذا تعني؟ قلت له: سبق أن شرحت أني أعرف ربي بعقلي ، إن قلبي ينبض بانتظام بين جوانحي ، مَنْ يحركه؟ أنا؟ أنت؟ ما يحركه إلا الله!.

إن الأولاد يتكونون في بطون أمهاتهم على نحو رائع ، مَنْ يصنع المخَّ والحواس وسائر الأجهزة والأعضاء؟ المرأة؟ الرجل؟ مَنْ إلا الله؟ إن انكار الألوهية لون من البهيمية ، وما أرى الإلحاد إلَّا عَمىً جديرا بالاحتقار كله..

فإذا عرفتُ الله بعقلي فإني لا أعرف كيف أصلّي له، وكيف أقوم بحقه، الا عن طريق نقل من صادقٍ معصوم.

والوحي الصحيح يؤكد المعقولات ويستحيل أن يصادمها، ثم ينشىء عبادات تستريح إليها الفطرة ونتعامل بها مع الله، ومع الناس، فلا تضل ولا تشقى..

عندما حضرتْ الوفاةُ الأديبَ الفرنسي «فكتور هيجو» جاءه القس ليشهد ساعته الأخيرة – أو ليغفر له حسبَ الشعائر الدينية عندهم – وأبي الأديب الكبير أن يستقبله، قائلا: لا حاجة لي بك، إنني أُومِنُ بالله وقد تصدقت بمالي..

لقد هزمتني هذه القصة، وشعرت أن هذا الأديب الكبير أقرب إلى الله من كثيرين، لقد آمن بعقله، ولم يجئه نقل صحيح يستريح إليه وهو أولى بالله من رجل الدين الذي جاءه!.

وفي أرجاء الدنيا كثيرون من هذا الطراز، أقروا المعقول ورفضوا المنقول، ولهم عذرهم، وقد تحرك هؤلاء في ميادين العلوم الكونية والحيوية والإنسانية، وكانت أيديهم الطولى في صنع التقدم الحضاري الذي نشهده..

وتاريخ الغرب بعد عصر النهضة يحكي الصراع الدموي الذي دار بين الدين والعلم، والدين والحكم، والدين والاقتصاد.. الخ، والدين المشتبك في هذا الخصام ليس الإسلام بداهة فأين كان الإسلام؟ وكيف غاب عن هذه الفوْرة الخطيرة؟.

أكره أن أدافع بالباطل عن قومي! إن قومي خذلوا دينهم، وناموا عن مطالبه، وغلبتهم شهوات نفسية وبدنية وغفلات عقلية واجتماعية، فحقت عليهم كلمة الله، ودفعوا ثمنا غاليا لانسحابهم من ميادين الحياة الصحيحة.

لقد كان هذا الثمن غزوا عسكريا وثقافيا واجتماعيا، أقبل فيه الغرب المتفوق، ومن ورائه الصليبية التي اصطلحت معه على أن تقوم بخدمته، ويقوم هو بتركها تؤدي دورها القديم.

وكان أن ماجت بلاد الإسلام في فوضى لا ينقشع لها غيم إلا حل محلّه غيم أشد سوادا وأملأ بالشرور.

والمدنية الحديثة نشأت من نشاط أرضي ولم تنبعث عن وحي سماوي! من أجل ذلك كانت الأنانية الطابع الأول لِحَمَلَتِهَا، وكان نسيان الله وجحدُ لقائه أمرا مألوفا فيها، ورخصت الدماء، وأهين الضعفاء، وكثر السكارى، وشاعت عبادة الجسد، وانتشرت الأمراض الجسمية والنفسية.

والعالم الآن يتربص بعضه بالبعض الآخر ويخشى أن ينتحر في أي لحظة بما يملك من أسلحة الدمار الشامل! إنه فقير إلى رحمة الله وحنانه، وأمام أهل الإيمان وأصحاب الوحي الأعلى مجال ممهود لعمل مثمر إذا شاءوا.

ونحن المسلمين نقدر على اسداء خير لأنفسنا وللناس، ونعتقد أن لدينا الكثير فهل يُسمح لنا بذلك؟ أم لابد من اعتبارنا مأكلة الأقوياء؟ واعتبار ما لدينا جملة أكاذيب؟.

أنا مستعد لأن أصحب أي قسيس لأية عاصمة كبرى، ويمنح كلانا ساعة واحدة في أنديتها الكبرى نتحدث فيها عن الله الواحد، عن المرسلين، عن الإنسان، عن المال، عن الشورى، عن العدالة الاجتماعية عن الأسرة عن الآخرة عن أي شيء يطرح علينا من حقائق الدين، وليكن الحديث على شكل ندوة، أو على التعاقب، ويمنع فيه منعاً صارماً أي تهجم أو عدوان..

ولمن شاء أن يتبعني طائعا غير مكره، ولمن شاء أن يتبع صاحبي.

ويمكن أن تعقد مؤتمرات خاصة على أي مستوى يرضاه رجال الكهنوت المسيحي لنتدارس فيها القضايا التي تطرح.

على أن هذا كله لا جدوى منه إذا بقي أولئك الرجال يتوارثون إحن القرون، ويطوون أفئدتهم على بغضاء لا قرار لها نحو الإسلام وأمته.

في هذه الأيام يتنفس الحقد القديم ضد أي دولة ترغب في إعادة التشريع الإسلامي ومن قبل ذلك حوربت اللغة العربية بأسلوب ينتهي لا محالة بإبادتها، ومن بضع سنين عرف المسيحيون بغتة أن اليهود أبرياء من دم المسيح(!) وأنه لا يجوز أن يلعنهم المصلون في الكنائس! ما هذا الود الطارىء؟.

إن كل ما في العالم من شروز يمكن أن يعالج بكلمة «الله محبة» إلا الإسلام فيجب أن يعالج بأن «الله كراهية».

على أية حال نحن نعرف أن كهنة الصليبية العالمية راغبون عن الوقوف في وجه مباذل المدنية الحديثة ومظالمها، لأنهم يشعرون بأن لها في أعناقهم ديْنا، فقد تناست تاريخا وعفت عن كثير، ولم تنبش قبور العلماء والعباقرة الذين قتلتهم محاكم التفتيش.

ثم هي الآن تمكنهم من ضرب الإسلام، وهذا التمكين يغفر للمدنية الحديثة كل شيء ولو أهلكت الحرث والنسل...

وفت الكنائس المسيحية بعهدها لليهود ألا تمسهم بسوء، وألا تؤلب عليهم أحدا، وظهر ذلك جليا في أحفال عيد الميلاد ورأس السنة... ولم يحدث إلا لغط حول الإرهاب العربي لليهود(!) وعداء اللاجئين المطرودين من قراهم ومدنهم للسلطات التي أكرهتهم على الخروج من ديارهم..!.

وشيء آخر سمعته والهموم تهاجمني، لمز للجهاد الإسلامي، وللرسالة التي قامت على سفك الدم..

قلت في نفسي: ألا يظفر العرب بالسماحة والمحبة اللتين ظفر بهما اليهود في هذه الأيام النحسات؟ هل كانت إساءات المسلمين للمسيح وأمه أشد من إساءات اليهود؟!.

ورجعت للتاريخ فوجدت العجب لقد ألقى الرومان القبض على أحد اللصوص، وعلى المسيح عيسى بن مريم بدسائس يهودية.

وكان من المصادفات أن يَحُلّ عيد روماني يمكن فيه العفو عن المجرمين ، ورأى اليهود أن يعفى عن اللص ويؤاخذ المسيح بتهمنه ...

وهاك القصة كما رواها مَتَّى في إنجيله : « قال لهم بيلاطس فماذا أفعل بيسوع الذي يدعى المسيح ، قال له الجميع ليصلب ، فقال الوالي وأي شر عمل ؟ فكانوا يزدادون صراخا قائلين ليصلب ، فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيء بل بالحري يحدث شغب ، أخذ ماء وغسل يديه قدام الجميع قائلا إني بريء من دم هذا البار ، أبصروا أنتم ، فأجاب جميع الشعب وقالوا : دمه علينا وعلى أولادنا ، حينئذ أطلق لهم باراباس ، اللص المقبوض عليه ، وأما يسوع فجلده وأسلمه للصلب » (مَتَّى ٢٧ : ٢٢ – ٢٦) .

وفي التلمود تَجَنٍّ سافر على المسيح عليه السلام ، فهو متهم بولادة غير شرعية ، وأمه الصدِّيقة هدف سهام يهودية مسمومة ، والمسيح خارج عن الإيمان ، ومحروم من رضا الله ، وخاطىء ، ويدفع الشعوبَ إلى الخطيئة وسرقَ اسم « يهوه » المبارك وادعاه لنفسه ، فعقابه جهنم وبئس المصير .

وبلغ من جرأة اليهود أن عالما من كبار علمائهم في العصر الحديث وهو « لوب » نشر في مجلة « الدروس اليهودية » ما يؤيد شتيمة المسيح واتهامه ، وهذا نصه : « أي عجب أن يتضمن التلمود بعض المذمات في حق يسوع ؟

إنما الغريب أن يكون الأمر على نقيض ذلك ، وان كان لأمر من العجب فلنعجب من أن التلمود لم يذكر من المذمات أكثر مما ذكر » .

ومما ورد في التلمود عن المسيح :

« يسوع الناصري في لجج بين العار والنار ، وحملته أمه من « باندرا » العسكري سِفاحاً ، والكنائس المسيحية قاذورات ، وأساقفتها كلابٌ نابحة ، وقتل المسيحي فريضة على اليهودي ، والعهد مع المسيحي ليس عهدا ملزما يجب الوفاء به ، وفرض على اليهودي لعن رؤساء المسيحية » .

فهل فعلنا نحن شيئا من ذلك ؟ وهل ذكرنا المسيح وأمه الا بكل شرف ؟ ماذا نقول ...

حملة صليبية على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم

حملة صليبيّة على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم

تدارست مع أحد الإخوة ما نشره المعهد البابوي عن الاعجاز العلمي للقرآن الكريم، وشعرت بأن قدرا كبيرا من التحريف والمغالطة تخلل الكتابات المنشورة في هذا الموضوع المهم.

إنه يسرنا أن يقرأ القوم ما لدينا، وأن يتناولوه بالنقد العلمي، ولهم الحق في إبداء وجهة نظرهم المخالفة، وما نشكو أبدا من هذا المسلك..

لكن «مجلة الدراسات العربية والاسلامية» الصادرة عام ١٩٨٥ أعدادها ٦٦، ٦٨، ٦٩ تنكبت هذا النهج، واتخذت طريقا آخر يخدم الحملة على الاسلام، ويحقق سياسة الفاتيكان في النيل منه، وتعكير مستقبله.

وقد كان الأسلوب ناعما ماكرا، ولكنه يحمل في طياته ما سوف نراه..

ترى المجلة أن الحديث عن الإعجاز العلمي للقرآن بدعة اختلقها دكتور موريس بوكاي، وأن المسلمين أعجبتهم هذه البدعة المساعدة فطاروا بها هنا وهناك...!.

وهذا كلام باطل، فما كتبه موريس بوكاي أواخر السبعينات من هذا القرن لم يأت بجديد يفاجئنا بروعته، بل أكد ما كان معروفا لدينا، والحديث عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم كان شائعا قبل ذلك بنصف قرن.

كان الأستاذ محمد أحمد الغمراوي سنة ١٩٣٧ يدرس كتابه «سنن الله الكونية» في السنة الأولى من كلية أصول الدين بالقاهرة، وما أدري أكان موريس بوكاي ولد أم لا؟ فكيف يقال: إنه صاحب «مودة» الإعجاز العلمي؟.

وقد اعتمدت على كتاب الغمراوي وأنا أتحدث عن الإعجاز العلمي في كتابي « نظرات في القرآن الكريم » المؤلف من ثلث قرن تقريبا ، وحديث العلماء عن هذا اللون من الإعجاز مأنوس مدروس في كتبنا من زمان بعيد ...

وتمضي المجلة في وهمها عن دور « موريس بوكاي » في الإعجاز العلمي فتعرض ما كتبه الأستاذ أحمد حنفي عن التفسير العلمي للآيات الكونية وكأنه فيما كتب قد تأثر ببوكاي ، وأنا موقن بأن المحرر يعرف أن كتاب أحمد حنفي صدر أواخر الخمسينات ، وأنه لم ير بوكاى ولم يقرأ له ، فكيف يتأثر السابق بعشرين سنة باللاحق المتأخر الذي جاء بعده .

لكن هذا اللبس مقصود للأسف ، ولا يعتذر عنه بأن الطبعة الثانية لكتاب أحمد حنفي صدرت عام ١٩٨٠ ، فإن الطبعة السابقة كانت عام ١٩٦٠ م وقد تحدث المؤلف عن آرائه في دروس ومحاضرات كثيرة قبل ذلك ، والعلاقة بينه وبين موريس بوكاي مقطوعة !

ثم يوهم المحرر جمهور القراء بأن الإعجاز العلمي — الذي أرخ له على نحو ما رأيت — قد تعرض له بالتزييف والرفض كاتب عظيم هو الدكتور كامل حسين ، وأن له مقالا منشورا عام ١٩٨٣ م فنَّد فيه هذا الإعجاز وأبطله ..

والدكتور كامل حسين مات من عشر سنين ، والمقال المنسوب إليه نشر عام ١٩٦١ م وهو مقال نعرف قيمته عندما نعرف كاتبه .

كامل حسين طبيب بشري ، كرس حياته في دراسة المذاهب الباطنية من قرامطة ونصيرية وإسماعيلية ... الخ ، ثم ألف قصة عنوانها « قرية ظالمة » تعتبر من الأدب التبشيري الحديث ! ومات الرجل والكنيسة راضية عنه ..

أما مقاله عن الإعجاز العلمي الذي حظي بالثناء المستطاب ، فهو مقال محشوٌّ بالسباب ، وليست له قيمة علمية ، وقد أضفت المجلة البابوية نعوتا طيبة على الطبيب المريب ، وهو كما ذكرنا .

إننا سنتحدث عن نماذج للتفسير العلمي أدق وأصدق مما اختار محرر «مجلة الدراسات العربية والاسلامية» التي تصدر بروما، ولكن قبل هذا الحديث نشجب التدليس العلمي الذي ظهر جليا فيما ساقه المحرر من تواريخ للأشخاص والبحوث.

ويظهر أن اللعب بالتواريخ عادة قديمة عند القوم نذكر نموذجا لها بعيد الأثر في تعمية الحقائق وتضليل الجماهير.

عندما انهزم الرومان قديما أمام الفرس كانت هزيمتهم من الشدة والخزي بحيث قدر العالم أن الرومان لن تقوم لهم قائمة بعدها..

لقد فقدوا مستعمراتهم في الشرق الأوسط كلها، وأُرغموا على دفع غرامات فادحة من أموالهم ونسائهم، وهذا ذل ما وراءه ذل!.

بيد أن صوتا فذا في أعماق الجزيرة العربية كذَّب الظنون كلها، وباغت الناس بخبر مثير، هو أن الروم سوف ينتصرون في بضع سنين!! ولم يكن هناك ما يدفع إلى تصديق هذه النبوءة العجيبة.

وانتصر الروم فى الأمد الذي حددته النبوءة وانهزم الفرس انهزاما سلبهم ما أخذوا، وكاد يفقدهم أنفسهم.

وكان على نصارى العالم أن يستمعوا إلى هذا النبي، أو يدرسوا سيرته، أو يؤمن بعضهم على الأقل برسالته!!! لكن شيئا من ذلك لم يحدث، فقد قال لهم المؤرخ الروماني جيرون إن سبب هذه النبوءة هو حقد محمد على كسرى، بعد أن مزق له رسالة يدعوه فيها إلى الاسلام (!).

والرسالة التي يذكرها المؤرخ الكذوب أرسلت إلى كسرى بعد هذه النبوءة ببضعة عشر عاما!.

النبوءة كانت في العهد المكي، والرسالة الداعية إلى الاسلام كانت في المدينة، قبل وفاة الرسول بثلاث سنين تقريبا..!

اللهم إلا إذا كان المؤرخ الروماني يسرد الوقائع على نحو ما قال الشاعر العربي المخمور:

أسكر بالأمس ان عزمت على الشرب غدا، ان ذا من العجب

وندع موضوع اللعب بالتواريخ إلى قضية الإعجاز العلمي نفسه، فهذا الإعجاز لا يبدأ من فراغ، إنه يبدأ من حقيقة لا يليق تجاهلها بباحث مخلص!.

لقد شعر القارئون للكتب القليلة المنتسبة إلى السماء أن القرآن يمتاز بخاصة لا تعرف لغيره، هي حديثه المستفيض عن الكون، وحثّه القويُّ على النظر فيه، ووصفه المتكرر لآفاقه، واستخلاصه عظمة الخالق من عظمة المخلوق.

وإنك لتستثار طوعا وكرها، وتنتقل من بناء الكون إلى بانيه البديع عندما تقرأ.

﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل، ولو شاء لجعله ساكنا﴾[1].

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها﴾[2].

ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض..﴾[3].

هذه الآيات ومئات غيرها وصفتْ الملكوت وصفا دقيقا لا تجد في أسواره ثغرة.

وقد وثب العلم في عصرنا وَثبات رحبة، وعرف من أسرار العالم ما لم يعرفه الأوائل، واستمع إلى آيات القرآن، وهي تصف الكون والحياة، فوجد تطابقا أو تقاربا يقطع بأن مصدر هذا الكلام، هو خالق العالم نفسه ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض انه كان غفورا رحيما﴾[4].

وماذا يقول علم الأجنة في وصف القرآن لأطوار الجنين في نشأته الأولى، ومتابعته المذهلة لمراحل تخلّقه؟.

---

(١) الآية: ٤٥ من سورة الفرقان (٢) الآية: ٢٧ من سورة فاطر.

(٣) الآية: ٢١ من سورة الزمر (٤) الآية: ٦ من سورة الفرقان.

لم يكن هناك تصوير بالأشعة يستكشف هذه الخبايا داخل جدار الرحم، لم يكن هناك علم تشريح يعرض مرئياته وتجاربه على الناس بهذه القدرة الصادقة!.

أنّى لمحمد هذا العلم؟ إن أرقى الحضارات عند بعثته كانت تجهل هذه الشؤون، فكيف بحضارة بدائية تملأ أكناف الجزيرة العربية، وتجعل الوثنية دينها الأثير!؟؟.

لا أحب أن يستحمق أحد فيقول: ان القرآن كتاب طب أو فلك، فليس يزعم ذلك عاقل إنه كتاب يهدي إلى الله بأسلوب يربط بين عقل الانسان وعجائب الكون، مع ارشاد إلهي يكمل قصوره، ويضبط مسيره..

وسنعلم أن هذا الاعجاز العلمي قد اختص به القرآن الكريم وحده، وأن غيره مستبعد ابتداء لأسباب مادية وأدبية.

وقبل أن نشرح ذلك نريد تبيان أن علماء المسلمين لم تملكهم عاطفة جامحة وهم يتابعون هذا الإعجاز، لقد نظروا إلى دلالات الكلام وفق مقررات علم أصول الفقه، وهو فلسفة الاسلام في استنباط الأحكام من مصادرها، فأجازوا ما أجازوا ورفضوا ما رفضوا..

سمعت قائلا يذكر من إعجاز القرآن هذه الآية: **﴿والذي أخرج المرعي * فجعله غثاء أحوى﴾**[1] يقول: الآية تشير إلى الأصل النباتي للنفط، وهو ما يقرره العلماء الآن!.

قلت: دلالة القرآن على ما تحكي بعيدة، ولا أستطيع تفسيرها على هذا النحو!

وسمعت آخر يقول: لقد سبق القرآن إلى اعتبار الرجل هو المسؤول عن نوع ولده أذكر هو أم أنثى؟ وذلك آخر ما وصل اليه العلم من كشوف، وساق من القرآن الكريم هاتين الآيتين.

---

(١) الآية: ٤، ٥ من سورة الأعلى.

﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى، من نطفة إذا تمنى﴾(١)

وكذلك قوله تبارك اسمه **﴿ألم يك نطفة من مني يمنى، ثم كان علقة فخلق فسوّى، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾**؟(٢)

وتدبرت الآيات في الموضعين، وشعرت بأن الدلالات واضحة وقريبة على أن ذكورة الولد أو أنوثته تجيء من ماء الرجل لا من البويضة التي تتكون في الرحم، وقلت: نعم هذا حق!.

وعلى أية حال فان النظريات العلمية لا تفسر بها الآيات القرآنية، ذلك ما رآه علماؤنا، فإن النظريات قابلة للتغير، ولا نُعَرِّض القرآن لظنون رجراجة.

أما الحقائق العلمية، فانها اذا وافقت كتابنا كانت تفسيرا حسنا له، بل كانت تفسيرا عمليا لقوله تعالى **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾**(٣).

قال لي بعض الكتاب: ان الباحثين في الفضاء يتعرفون هل الكواكب التي يرصدونها بها ماء أو لا، فان وُجد بها الماء كان ذلك مظنة الحياة على سطحها، أليس ذلك مصداق قوله تعالى:

﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾(٤).

قلت: إن الحياة البشرية وغير البشرية على سطح الأرض تعتمد على الماء يقينا، والآية لا ريب فيها.

وقد تكون هناك حَيَواتٌ أخرى لأجناس أخرى لا علاقة لها بالماء، اننا نحن المسلمين نتبع اليقين، ونأبى الظنون والتخامين، والإعجاز العلمي له رجاله الراسخون.

وأمثل من قرأت لهم الدكتور محمد أحمد الغمراوي طيب الله ثراه.

---

(١) الآية: ٤٥، ٤٦ من سورة النجم (٢) الآية: ٣٧ – ٣٩ من سورة القيامة.

(٣) الآية: ٥٣ من سورة فصّلت (٤) الآية: ٣٠ من سورة الأنبياء.

والدكتور موريس بوكاي زاده الله هدى وتوفيقا .

والآن يجيء الكلام عن الكتب الأخرى التي تنتسب إلى السماء ونتساءل : هل وصف أهل دين ما — سوى المسلمين — كتابهم بأنه معجز ؟ إن التحدّي لم يقع الا بالقرآن وحده ﴿ **قل : لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾ (١) .

أما الكتب الأخرى فلم تنسب إلى نفسها إعجازا علميا ولا بلاغيا ولا نفسيا ، وعرضت ما بها وكفى .

وشيء آخر نتحدث عنه مصارحين : أن الوحي الالهي المتجسد في القرآن ليست به شائبة من صنع بشر ، لكن الأمر الذي استقر عليه القوم في آخر تعاريفهم للوحي أنه الهام من روح القدس ، لا تنفك عنه الخصائص الانسانية عند من يتلقاه ! .

هل يعني ذلك أن كلمات الكتاب المقدس تشبه أقوال الأنبياء ؟ كنت أتمنى ذلك ! .

الذي يبدو لي أن واضعي التعريف الأخير أرادوا به تجاوز ما استحال عقلا أن ينسب إلى وحي سماوي في إصحاحات كثيرة ، أقول : بل ما يستحيل أن ينسب إلى رجال صالحين !! .

من أجل ذلك توقفت وأنا أقرأ مجلة « الدراسات العربية » التي يصدرها المعهد البابوي وهي تعلق على التفسير العلمي للقرآن الكريم قائلة : « إن هذا التفسير الذى ظهر بين المسلمين هو محاكاة للمحاولة المسيحية التوفيقية بين التوراة والعلم التي وقعت في القرن التاسع عشر » .

وهذه جرأة لا نتركها تمر ، فليست بين القرآن والعلم فجوة نحاول ردمها ، ولا مسافة نبغي تقريبها أو محوها ، انما الفجوة العميقة والمسافة الشاسعة هي بين العلم وبين التراث الديني الذي تركه كاتبو العهد القديم .

(١) الآية : ٨٨ من سورة الاسراء .

ويستحيل عقلا ونقلا أن تنجح أية محاولة للتوفيق بين الطرفين، إن الخلاف بينهما علمي وعقائدي وأخلاقي وتاريخي !!.

وأكاد أجزم بأن مؤلفي هذا الكتاب جمعت بينهم نية مشتركة في تلطيخ سيرة الأنبياء، ونسبة المناكر اليهم، وإبراز حقيقة الدين – بعد سقوط قادته – كالحة رديئة.

إننا نحن المسلمين نأبى كل الاباء وصف اسرائيل بأنه نصاب مخادع احتال على سرقة النبوة، وهي حق أخيه عيصو كما يقولون، ومثل أمام أبيه الأعمى اسحاق أنه عيصو نفسه ولبس إهاب ضأن ليبدو كثير الشعر كأخيه، وقلد صوته.. الخ.

هل النبوة منصب يُسرق؟ وهل رسل الله لصوص يسلبون الآخرين حقهم؟

ماذا تكون حقيقة الدين بعد ذلك؟ وماذا ينتظر من أتباعه الا أن يكونوا خطافين؟ وكيف يتصور الناس الألوهية في هذا الجو؟.

إن الصورة المثلى للالوهية، كما ذكرها أحد كتاب العهد القديم أن يحكي للأجيال قصة طريفة، كان ابراهيم جالسا تحت أشجار البلوط في «ممرا»، فنظر بعيدا فوجد الله قادما يمشي مع بعض الملائكة (!) فهرع إليه وسجد بين يديه، وقال له: ان كان عبدك يجد نعمة لديك فتعال وتناول الغداء معه!!

وقبل الرب الضيافة وشارك في أكل عجل ذبحه له ابراهيم الخليل!! إنها الوهية عجيبة تلك التي جسدها لنا أحد كتاب العهد القديم!.

والتفسير العلمي للتوراة في القرن التاسع عشر حاول أن يوفق بين الدين والعلم وهو يواجه هذه الأساطير السقيمة.

والمسلمون عندما يتحدثون عن الإعجاز العلمي للقرآن إنما يقلدون في هذا القرن العشرين ما فعله كهان القرن التاسع عشر في العالم الغربي!.

ترى ما فعلوا وكيف وفقوا؟؟.

ولست الآن في مجال استعراض لما نأخذ به الآخرين من تخبط في فهم الألوهية والنبوة ومعنى الوحي، ومعنى التاريخ.. فذاك أمر له ميدان فسيح، إننا فقط ننبه محرر مجلة الفاتيكان أن يكون يقظا أو حذرا قبل أن ينال منا بالباطل.

إنه يعلم أن مفكري أوربا أحصوا مئات الأغلاط في هذه الكتابات، ورفضوا نسبة قداسةٍ مّا إليها.

قداسة؟ قداسة لنص يقول: ان الله صنع قوس قزح عند نزول الأمطار كي يتذكر، فلا يترك المطر يهطل حتى لا يحدث فيضان آخر، فإنه ندم على الفيضان القديم.

إله ذاهل يحتاج إلى مُنَبِّه!!.

ومن أغرب ما قرأت ما جاء في سفر «حزقيال» في الفقرة ١٣ حيث يقول الرب لحزقيال: «وتأكل كعكا من الشعير على الخُرْءِ الذي يخرج من الانسان: تخبزه أمام عيونهم – يعني بني اسرائيل – وقال الرب هكذا يأكل بنو اسرائيل خبزهم النجس بين الأمم التي أطردهم اليها».

ترى: ما هي محاولات التوفيق بين العلم والتوراة التي بدأت مع القرن التاسع عشر؟ وهل هذه المحاولات هي التي نقلدها نحن المسلمين، عندما نتحدث عن إعجاز القرآن، ونجعل التفسير العلمي نوعا من التفاسير الخادمة للوحي الأعلى؟.

يؤسفنا أن نقول: ان المحرر لصحيفة الفاتيكان يهزل، ويتحصن وهو يهاجم القرآن وراء نسيج من بيوت العنكبوت.

وكأنما شاءت الأقدار أن تثأر للكتاب الذي افتري عليه المفترون، فإذا نقابة الأطباء في مصر تدعو إلى مؤتمر عالمي لبحث الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، والتقى في القاهرة علماء قدموا من نيف وعشرين دولة، وقُدِّم في الموضوع نحو ثلاثمائة بحث!.

ورأينا الراسخين في أهم علوم العصر يستمعون في وعي إلى ما يقال، فلما رأوا الصوت الذي انبعث من خمسة عشر قرنا يتحدث إليهم حديث خبير بأسرار الحياة، عليم بقوى الكون والانسان، لانت قلوبهم لذكر الله، فمنهم من ذهب إلى الأزهر يعلن اسلامه، ومنهم من قرر متابعة الدراسة مع إخوانه، وهو مبهور مما أفاد!.

الدكتور «برسو» أستاذ التشريح يقول: إن تحقيقه لبعض الآيات والأحاديث أشعره بأن القرآن وحي الله إلى محمد يقينا.

فمن أين أتت هذه المعارف التي صدقتها كشوف العصر الحديث؟

ويتساءل الدكتور «مارشال جونسون» لماذا لا يكون محمد نبيا؟ ومعه هذا الكتاب المشحون بالنظرات الصائبة إلى العالم وقواه وأسراره التي تجلت لنا في القرن العشرين؟.

نقول: هل أحق منه بالنبوة من نقرأ التراث المنسوب إليهم فلا نجد به إلا محنة العقل والضمير، ودسائس الحقد والجهل؟؟.

ويقول الدكتور «كيث مور» أستاذ علم التشريح وأحد الخمسة الأوائل من علماء الأجنة، وله مؤلف مترجم إلى ثماني لغات: ان تصنيفنا لأطوار الجنين لم يعرف الا أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن.

وقد أعطيت مراحل التخلق في بطن الأم أرقاما وحروفا أبجدية لا معنى لها، ولكن الدراسات الحديثة المقارنة لعلم الأجنة، وللقرآن والسنة أسفرت عن مصطلحات أخصر وأنفع تعتمد على الشكل الذي يمر به الجنين، شكل النطفة والعلقة والمضغة والعظام وكسوة العظام باللحم ثم طور النشأة الأخيرة!.

وعرض الدكتور صورا تبرز هذه الأطوار وفق ما ذكر القرآن الكريم من خمسة عشر قرنا.

نقول: وبحوث اليوم كثيرة، وبحوث الغد أكثر، انني حسن الظن بالفطرة الانسانية مادامت تسترشد بالوحي الأعلى، وتتحرى مرضاة خالقها.

ومصيبة الانسانية في نظري من فريقين: فريق يستعلي على ربه أو يفسق عن أمره، وفريق يُزوِّر مراده ويفتري عليه.

وفي بعض الأحيان أبحث عن أسباب العوج السائد، فأرى الذين قدموا الحق شوهوا وجهه وزهدوا الناس فيه، وأرى الآخرين هاموا على وجوههم، ما احترموا فطرتهم ولا أنصفوها.

والمدنية الحديثة تتبع هواها وتأبى بشدة أن تخضع للدين!.

ولا يزال الدين جديرا بالازدراء والنبذ اذا كان رجاله يحاربون التوحيد الاسلامي ويبيتون الويلات له، ويهادنون الالحاد الأحمر والأصفر ولا يشتبكون معهما.

ولا يزال الدين أهلا لظنون السوء اذا وجه جهده بجنون لمحاربة تعدد الزوجات، وصمت صمت القبور عن شيوع الزني واللواط!!.

أليس ذلك ما يفعله الفاتيكان الآن، وما يجتهد رجاله الكبار والصغار لتحقيقه؟ منتهزين الهزيمة التي ألمت بالمسلمين في العصر الأخير لبلوغ مآربهم..

لقد انطلق العلم وحده منفردا بزمام الانسانية جمعاء وحقيق به أن ينفرد! مَنْ يَشْرَكُهُ في هذه القيادة أو يستبد بها دونه، ورجال الأديان على ما علمنا؟..

على أن المسلمين اذا ارتفعوا إلى مستوى الاسلام أنقذوا أنفسهم وأنقذوا الدنيا معهم.

إن العالم اليوم يفكر في الانتحار، وقد يصيبه مسٌّ فيقدم على حرب تحصد الأخضر واليابس! فهل نصْحو نحن قبل فوات الأوان؟ ونأخذ على أيدي العابثين بالأديان؟.

الحُكم الإسلامي لاينطلقُ من فراغ

الحكم الإسلامي لا ينطلق من فراغ

عندما كان موسى عليه السلام يكافح لتحرير قومه من ظلم الفراعنة واجه متاعب جديرة بالتأمل، وجلّ هذه المتاعب كان من قومه أنفسهم!.

أصدر اليهم الأمر أن يرحلوا من مصر في ليلة موعودة، وأن يستخفوا تحت جنح الظلام متجهين شطر البحر الأحمر، واستجاب اليهود للأمر الذي أصدره قائدهم، فلننظر: أكانوا متلهفين للخروج من مصر؟ أكانوا متعشقين للحرية التي فقدوها؟ والأمان الذي حُرموه؟ أكانوا كارهين لجوٍّ تذبح فيه الأبناء وتستحي النساء، ويُصب فيه البلاء؟.

إن هذا ما يتبادر للأذهان.

غير أن الواقع غير ذلك، فإن بني إسرائيل كانوا قد ألفوا الدنية واستكانوا للضيم على نحو ما قال أبو الطيب:

من يهُن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميِّت إيلام!

وقد نبه القرآن الكريم إلى موقف الشعب من القائد الذي يبغي تحريره قال تعالى: ﴿**فما آمن لموسى الا ذرية من قومه، على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم**﴾ (١) إن بعض الشباب الحديث السن السليم الفطرة هو الذي اعتنق رسالة موسى، وقرر أن يقاوم معه الجبروت، ومضى مع أحلام المغامرة ينشد مستقبلا أشرف!.

أما الشيوخ وسواد اليهود فقد قيد مسالكهم الخوف ولم يتحمسوا لدعوة الحرية! وقد انكشفت خباياهم لما قرر فرعون ملاحقة الهاربين من بطشه، وخرج على رأس جيش كبير ليستعيد قوم موسى إلى السجن الذي فروا منه!!

---

(١) الآية: ٨٣ من سورة يونس.

كانت مطاردة مثيرة، اليهود يشتدون نحو الساحل عابرين الصحراء الشرقية، وفرعون وراءهم يريد أن يدركهم.. ويصف الإصحاح الرابع من سفر الخروج هذا الموقف قائلا: «فلما اقترب فرعون رفع بنو إسرائيل عيونهم، وإذا المصريون راحلون وراءهم، ففزعوا جدا، وصرخ بنو اسرائيل إلى الرب وقالوا لموسى: هل لأنه ليست لنا قبور في مصر أخذتنا لنموت في البرية؟ ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر؟ أليس هو الكلام الذي كلمناك به في مصر قائلين: كُفَّ عنا فنخدم المصريين لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية»؟

إن هذا الكلام ناضح بالنذالة والجبن واستمراء الدنية، والواقع أن الشعوب التي برحت بها العلل لا يمكن أن تبرأ من سقامها بين عشية وضحاها، إنها تحتاج إلى مراحل متتابعة وسنين متطاولة من العلاج المتأني الصبور حتى تَنْقَه من بلائها.

من أجل ذلك قرر المصلحون بعد تجارب مريرة أن الزمن جزء من العلاج.

وقد رأيت بعد تدبر عميق أن الشعب الاسرائيلي أول أمره لم يتبع موسى عن عزة نفس أو صلابة يقين، لعله تبعه عن تجاوُب عِرْقي أو تعصب قَبَلي، ثم استفاد الأخلاق والإيمان في مراحل متأخرة.

وملاحظة العقل اليهودي، والتاريخ اليهودي تؤكد هذا الاستنتاج!!

ونحتفظ بهذه النتيجة الآن لنعرف نهاية المطاردة بين فرعون وموسى! لقد صوَّرها القرآن الكريم في هذه الآيات ﴿**فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى: إنا لمدركون! قال: كلا، إن معي ربِّي سيهدين، فأوحينا إلى موسى: أن اضرب بعصاك البحر، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، وأزلفنا ثَمَّ الآخرين، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين، ثم أغرقنا الآخرين**﴾(1)

---

(1) الآيات: ٦١ — ٦٦ من سورة الشعراء.

إن الله لم يخذل نبيه، بل سانده بقدرته الخارقة، ولم يترك الجبابرة ليستأنفوا فسادهم في الأرض، بل أخمد أنفسهم بضربة ما توقعوها قط

ونظر بنو اسرائيل فوجدوا أنفسهم سالمين على الشاطىء الآخر، كما أحسوا أن قتلة الأمس قد طاحوا، فلا عدوان عليهم بعد!! ..

فبماذا استقبلوا هذه النعماء الغامرة؟ وماذا فعلوا لمسديها الجليل؟

لقد تيقظت في أنفسهم الوثنية، وأعجبتهم عبادة الأصنام! فتقدموا إلى نبيهم في بلادة هائلة ليجعل لهم صنما! قال تعالى **﴿وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، قالوا: يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة! قال: إنكم قوم تجهلون، إن هؤلاء متبَّرٌ ما هم فيه، وباطل ما كانوا يعملون، قال: أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين﴾**[1].

وأى فضل أعظم مما تم؟ أن يرثوا الأرض، ويغلبوا العدو، ويُمنَحوا فرصة السيادة؟ بيد أن شيئا من ذلك لم يغير خِسَّتهم إن أثقالهم النفسية حطَّت بهم في مكان سحيق..

وجاء الاختبار التالي، فإن الله لم يكلف اليهود بمحاربة فراعنة مصر – ومحاربة الطغاة مطلوبة حيث كانوا – إلا أن الإسرائيليين كانوا أقل وأذل من ذلك، لقد كلفوا بمحاربة الجبابرة الذين يسكنون فلسطين، وَوُعدوا بأنهم في هذه الحرب سوف ينتصرون...

وجزع اليهود لهذا التكليف، ولم يُطمَئنهم هذا الوعد!! إنهم أحرص الناس على حياة، وهيهات أن يعرِّضوا أنفسهم لخطر! كيف يُطلب منهم قتال؟.

يقول لي الأمير بغير جرم: تقدم!. حين جَدَّ بنا المراس!
فما لي إن أطعتك من حياة وما لي بعد هذا الرأس راس!

---

(١) الآيات: ١٣٨ – ١٤٠ من سورة الأعراف.

جاء في القرآن الكريم على لسان موسى ﴿ **يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين قالوا: يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها** ﴾[1].

ووصف التوراة حال الشعب اليهودي عندما سمع هذا التكليف فرفعت كل الجماعة صوتها وصرخت! ويكى الشعب تلك الليلة، وتذمر الشعب على موسى وعلى هارون، وقال لهما: ليتنا متنا في أرض مصر! أو ليتنا متنا في هذا القفر! لماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف؟

وكان لابد من قرار إلهي قاطع..

إن هذا الشعب محتاج إلى تربية طويلة الآماد، تكبح جماحه وتقتل رذائله، وتفتح بصيرته على لون آخر من الحياة الرفيعة، والإيمان بالله واليوم الآخر..

فلتكن سيناء مصيدة محكمة الجدران يضطرب داخلها، ويعيش وراء حدودها لا يعرف أحدا ولا يعرفه أحد، وليبق على تلك الحال أربعين سنة!.

أربعين سنة يهلك فيها الذين شاخوا في الفساد، ويتدبَّر أمره في سجنها الطويل مَنْ عاشوا لا يفكرون إلا في مآربهم! وستنضج خلالها الذرية التي آمنت بموسى، وتبلغ مرتبة الرجولة التي تتصرف في نفسها وفيما حولها...

أربعين سنة يخرس فيها من كانوا يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، ويخطب فيها بقوة من كانوا يهمسون بالحق فتكمَّم أفواههم!.

إن الأفراد المدمنين للمخدرات يحتاجون إلى مستشفيات تفنى فيها عاداتهم السيئة وتحيا فيها عادات جديدة تصح بها أجسامهم وأعصابهم، فكيف بأمم تواضعت على تقاليد رديئة وأعراف فاسدة؟

---

(١) الآيات: ٢١، ٢٢ من سورة المائدة.

إن هذه الأمم محتاجة إلى جوٍّ جديد تتنفس فيه هواء أنقى، وتسمع فيه إلى دعاة الحق وهم يهدونها سواء السبيل.

وقد طالت المدة على بني إسرائيل في سيناء! مات في هذه الفترة موسى وهارون، وتركا وراءهما شعبا يتولى القدر تأديبه، ويتدرج بشتى الوسائل على رفع مستواه.. ولم يكن من هذا بدٌّ، إن الأمم لا تترك السفوح إلى القمم بكلمة عابرة من واعظ مخلص، أو مدرس بصير، الزمن جزء من العلاج.

استوقفتني في هذا المعنى فكاهة ذات مغزى: قيل إن ثعلبا جائعا انطلق يبحث عن طعام، فرأى من سرداب طويل إناء مشحونا بما لذَّ وطاب، فوثب داخل السرداب الضيق وتلطف حتى بلغ الإناء ثم أخذ يكرع منه حتى امتلأ، وحاول العودة من حيث جاء فعجز، لأن بدنه انتفخ فما يستطيع التقهقر! ولقية في محبسه هذا ثعلب عجوز عرف القصة من بدايتها، فقال للثعلب الصغير: ابق في مكانك هذا حتى تجوع وتعطش وتخفّ وتنحف، وعندئذ تقدر على الخروج! قلت ضاحكا: الزمن جزء من العلاج..

لكن ما تكون عليه حال الدنيا خلال هذا الزمن المفروض؟ إن الجبارين الذين أُمِرَ بنو اسرائيل بمقاتلتهم سيبقون مفسدين في الأرض ينشرون في أرجائها الكفر والذل، سيبقون كذلك عشرات السنين! فكيف ترضى الأقدار بهذا العوج؟

وأجيب: لابد من وارث شريف للحضارة المعتلة! وإذا كان حملة الوحي الالهي ليسوا أهلا لهذه الوراثة فهيهات أن يقودوا.. سواء حملوا التوراة أو الإنجيل أو القرآن..

وقد تنبأت بأن المدنية الحديثة سوف تبقى عصرا آخر لا أدري مداه، سوف تبقي مع كفرها باليوم الآخر، ونسيانها الوضيع لله، وظلمها للضعاف والملوَّنين، وتَهتُّكِها في طلب الشهوات بكل وسيلة.

لماذا ؟ لأن حملة الوحي يفقدون من الناحيتين الفكرية والنفسية مؤهلات القيادة ، بل أعرف – وأنا عربيٌّ أعيش بين العرب – أن لدينا رذائل من نوع آخر لا تقل عن رذائل المعطلين والمثلثين ، يستحيل معها أن نكون أهلا للصدارة ، بل يستحيل معها أن يقع زمام القافلة البشرية في أيدينا ..

إن فساد المبتعدين عن الله ، الجاهلين بحقوقه ، سوف يعلَّل بأنهم لا إيمان لهم ..

أما فساد المتدينين فإنه يرتدُّ إلى الدين نفسه بالنقض ، ويجرّ عليه تهما هو منها براء ، فحكمة الله واضحة في تأخير المتدينين الجهلة وحرمانهم من السلطة .

والأمة الإسلامية منذ بضعة قرون تتدحرج إلى أدنى ، والمصلحون الذين هم شهداء عليها يوم القيامة لا يلقون منها إلا عنتا ، وقد فقدت في أثناء هذا التدحرج أمرين جليلين :

أولهما الشمائل الإسلامية التي اختصت بها الرسالة الخاتمة .

والآخر الملكات الإنسانية التي تتمتع بها الشعوب الراقية ، والتي تجعلها سبّاقة في ميادين الحياة المادية والأدبية ..

أذكر أنه جاءني يوما أحد الدعاة في حال من الغضب الشديد يقول لي : أترى إلى حكومتنا وهي تدعو إلى تحديد النسل ؟ يجب أن تنضم الينا في محاربتها !

قلت له وأنا متثاقل : إن التحديد المقترح لا يحل المشكلة القائمة ! ان المشكلة تكمن في عدم وجود الإنسان السويّ ، والمجتمع الناشط .

قال لي : ان تعاليم الإسلام هي تكثير النسل .. قلت .. له : نعم وله تعاليم أخرى في تكبير الشغل ! قال : ماذا تعني ؟ قلت : لماذا تريد الزواج والنسل الكثير على أن يقوم غيرك بالإنفاق على زوجك وولدك ؟ إنكم لا تعمرون الأرض وتثيرونها كما أثارها غيركم وعمَّروها ، إنكم لا تستخرجون خيرات الأرض من خباياها وظواهرها كما استخرجها غيركم من أنحاء البر والبحر !! .

إنكم بدوافع الرغبة الحيوانية تصيحون في طلب الزواج والأولاد، وتطلبون الكثير الكثير، فعلام يدل هذا؟ على أن العقل الإسلامي يعرف رغبته ويسمع صوتها، ولكنه لا يعرف واجبه ولا يلبي نداءه!.

ثم استتليت: لا الشعب يدري، ولا السلطة تدري! ظلمات بعضها فوق بعض!!.

إن المثال السابق سقته إثر واقع عرض لي وأنا أكتب الآن، وهو يخدم الفكرة التي أريد ابرازها، وهي أن علل الأمم لا تداوى بالارتجال السريع، والرغبة النزقة.

والشبان الذين يظنون الإسلام يمكن أن يقوم بعد انقلاب عسكري أو ثورة عامة لن يقيموا اسلاما إذا نجحوا! فإن الدولة المحترمة وليد طبيعي لمجتمع محترم، والحكومة الصالحة نتيجة طبيعية لأمة صالحة! أما حيث تتكوّن شعوب، ماجنة وضيعة فسيتولى الأمر فيها حكام من المعدن نفسه **﴿وكذلك نولّي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون﴾**[1].

والاتجاه إلى الجماهير لغرس العقائد وتزكية الأخلاق وإنشاء تقاليد شريفة، وإقامة شواخص ماجدة ترنو إليها البصائر، وإقامة الصلاة جماعة بعد جماعة، أعني وقتا بعد وقت من الفجر إلى العشاء، وتحصين الرجال والنساء ضد الانحراف والانحلال، والتغلغل في الأسواق والميادين والمنظمات والنقابات لإحياء كلمات الله وإنفاذ وصاياه.. ذلك كله كان طريق الأنبياء وحوارييهم ومن نهج نهجهم..

ولم تقع معركتا بدر والفتح إلا بقدر أعلى انساق إليه المسلمون دون خطة سابقة أو إعداد مبيّت..!!.

---

(١) الآية: ١٢٩ من سورة الأنعام.

أعرف أن عددا من الحكومات مرتدٌّ عن الإسلام يقينا، وأنه لن يدّخر وسعا في مقاومة المدِّ الإسلامي وفتنة أهله، وعلاج ذلك يتم بالتزام الخطّ الذي رسمه الأنبياء، والصبر على لأوائه وضرائه، فهو - وان طال المدى - أقصر الطرق إلى الوصول، وأولاها برعاية الله، وأبعدها عن الأطماع والشبهات..

ولا تحسبن هذا الخط أبعد عن المخاطر وأقرب إلى السلامة، إنه صعب التكاليف ثقيل الأعباء، وقد رأيت أعداء الإسلام يرقبون هذا الخط بحذر ويرون أصحابه هم الأعداء الحقيقيون لهم.

إن قصة خدمة الإسلام عن طريق الانقلابات والثورات راودتْ أناسا لهم إخلاص وليست لهم تجربة، ولم تنجح من سنين طويلة هذه المحاولات، ورأيي أنها لو نجحت فإلى حين، ثم يبدأ الجهاد لتنظيف الشعوب من أقذائها، وإحداث تغيير جذري في أخلاقها وعاداتها! أي أننا سنرجع إلى الإصلاح الشعبي عن طريق الشعب نفسه لا عن طريق الأوامر الرسمية.

لست أنكر قيمة السلطة في اختصار المسافة، وإقرار المعروف ومحو المنكر، وإني أعلم أن الدولة جزء من الدين، وأن أجهزتها الفعالة جزء من شُعَب الإيمان السبعين.

وكون الحكم من شعائر الإسلام حقيقة لا يماري فيها إلا جاهل أو جاحد..!.

وهذا كله لا يلغي ولا يوهن عمل الأمة نفسها في تثبيت العقائد والأخلاق والعادات الحسنة، وفي إعلاء سلطان الضمير وتتبع مسارب السلوك الخفية والجلية، وفي فرض رقابة دقيقة على أجهزة الحكم، وإبطال شرعيتها إن هي نسيتْ وظيفتها أو جاوزت حدودها..

إن الدولة في الإسلام صورة ظاهرة لباطن الأمة، وهي يدها التي تحقق بها ما تبغي، وقدمها التي تسعى بها إلى ما تريد..

بيد أن ضراوة الطباع البشرية السافلة قلبت هذا كله رأسا على عقب، وأمكنت ناسا من عبيد ذواتهم أن يفهموا الحكم على نحو آخر، إنهم لم يفهموه عبادة لله بل سيادة على الآخرين، ولم يفهموه أمانة ثقيلة العبء بل فهموه مغنما لذيذ الطعم، وتطاولت هذه الحال على الأمة المنكوبة فأصابها من الضياع ما أصابها...

كان رسول الله ﷺ يعلم أن وضع قريش بين القبائل العربية يجعل الأمور تتدافع اليها، ويجعلها مرشحة أكثر من غيرها لتولي السلطة، فأحب أن يشعرها بما لها وما عليها لترغب وترهب، روى أحمد في مسنده عن أبي موسى الأشعري قال: «قام رسول الله على باب بيت فيه نفر من قريش، وأخذ بعضادتي الباب، فقال: هل في البيت إلا قرشي؟ فقيل: يا رسول الله، غير فلان ابن أختنا، فقال: ابن أخت القوم منهم! ثم قال إن هذا الأمر في قريش ما إذا استرحموا رحموا، وإذا حكموا عدلوا، وإذا قسموا - يعني المال - أقسطوا، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل» أي لا تنفعه توبة ولا فداء.

وقد قامت لقريش دولة بل دول في المشارق والمغارب، فهل راعت شروط الاستخلاف، أم جرّت على الإسلام وأمته المتاعب..؟.

لقد لبث الحكم في أيدينا أحقابا، فلما لم تحسن الأمة الإفادة منه في دعم رسالتها ورفع رايتها، انتزعه الآخرون منها، وها هي ذي تلهث لتستعيده.

وهو إن شاء الله عائد الينا طال الزمان أو قصر، غير أنه لن يعود حتى تختفي من بيننا أوهام كثيرة في فهم معنى السلطة، وحتى ترقى أمتنا ماديا ومعنويا فتكون الدولة في يدها لخير الجماهير لا لإرضاء فرد مغرور..

إن فن الحكم في العالم المعاصر قد ارتقى إلى أوج بعيد، وفي انجلترا مثلا يستطيع عامل في أحد المناجم أن يجابه الحكومة دون أن تخالجه ذرة من قلق! وقد ينتصر أو ينهزم فلا يزيده نصر ولا تنقصه هزيمة!.

ولو وقع ذلك في بعض الدول الإسلامية لأمر الحاكم بقطع عنقه، ولمرّت الدهماء على جسده الملقى يقولون: ما دخلُك يا صعلوك في سياسة الملوك؟.

إن الشعب والحكومة معا دون مستوى الإسلام الذي ينتمون إليه، بل هم والحق يقال عار عليه! لقد اختفت تحت أطباق الثرى تقاليد الخلافة الراشدة، وبقيت في العقل الباطن للدهماء تقاليد السلاطين الذين هم ظل الله في الأرض، وفتاوي العلماء الذين تواصوا بقبول الأمر الواقع، أو بالتعبير الفقهي الخضوع لمن نالوا الحكم بالغلبة والقهر..!.

ثم كان من احتكاك المسلمين بغيرهم من أهل الأرض، أن ظهرت وطبقت فلسفة الديمقراطية، ورأى من لهم فقه وتقوى أنها قريبة من «الشورى الاسلامية» فكيف انتقلت إلينا «ديمقراطية» الغرب؟..

إن الحكم الفردي صالح بينها وبين رغبته، ويستطيع الحاكم «الملهم» في بلاد الإسلام أن يظل عشرات السنين، يُنتخب هو وحده لا غير، عشر مرات أو أكثر ما دام حيا.. ويقولِ هذا الحاكم للمتدينين هذه هي الشورى التي تنادون بها، ويقول للناس من وراء الحدود، أنا وليد انتخابات حرة، وإرادة شعبية.

والأرض والسماء يعلمان أن هذا كذب وزور..

والأمر يحتاج إلى تغيير جذري كما قلنا في كيان الأمة وعقلها وضميرها حتى لا تمرّ هذه المهازل أبدا..

ويضحك أولو الألباب ومن حقهم أن يبكوا عندما يسمعون متحدثا باسم الإسلام يصحح هذه الأوضاع!.

هل تحتاج أمتنا إلى أربعين سنة تصحُّ فيها كما احتاج بنو اسرائيل؟ لا أدري! كل ما أقدر على قوله أن الإسلام لا يقبل حكما عسكريا، ولا يعرف خرافة: «الناس قلوبهم مع الحسين وسيوفهم مع يزيد» وأن على دعاة الإسلام شرح الإسلام من خلال تعاليمه لا من خلال تقاليد عصور الانحطاط والفوضى في تاريخه المديد.

عليهم أن يعدُّوا قتيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شهيدا أغر الجبين لا صعلوكا يقاوم السلاطين، فإنهم بهذا المنطق الجبان لن يكونوا مسلمين! ولن يصلحوا لقيادة أنفسهم بَلْهَ أن يقودوا العالمين..!.

وصلة الاقتصاد بالسياسة وثيقة، ومراقبة سير المال بين جماهير الناس لابد منها، وتحديد موقف الحاكم من المال العام شارة كل دولة محترمة.

وقبل أن نشير إلى ما يقع في بلادنا الإسلامية نريد أن نثبت نموذجا من الخلافة الراشدة يوضح طبيعة الحكومة الإسلامية والسمة البارزة لحياة الحاكم المسلم.

كان عمر بن الخطاب مرموق المكانة في الجاهلية والإسلام فلما ولي الخلافة، واتسعت رقعة الدولة في عهده، وورث ملك الأكاسرة والقياصرة، لوحظ عليه أنه حريص على استصغار شأن نفسه سرا وعلنا، وعلى توكيد أنه رجل لولا فضل الله ما كان شيئا يذكر..!!.

كان عمر مع قافلة من الناس يمرّون بشعاب «ضجنان» — جبل قريب من مكة — فسُمِعَ يقول: «لقد رأيتني في هذا المكان، وأنا في إبل للخطاب وكان فظا غليظا أحتطب عليها مرة، وأختبط عليها أخرى، ثم أصبحت اليوم يضرب الناس بجنباتي ليس فوقي أحد! ثم تمثل بهذا البيت:

لا شيء فيما ترى إلا بشاشته يبقى الإله ويفنى المال والولْد!

وخرج عمر يوما حتى أتى المنبر، فشوهد عليلا، وكانوا قد وصفوا له عسل النحل، وفي بيت المال عُكَّة منه - آنية صغيرة - فقال للناس: إن أذنتم لي فيها أخذتها، وإلا فإنها عليَّ حرام، فأذنوا له فيها..!!.

وكان عمر يؤكد أنه ما قبل الخلافة إلا رجاء أن ينهض بما لا يقدر غيره على النهوض به، ولولا ذلك لنأى عنها، وفي ذلك يقول: «ليعلم من ولي هذا الأمر من بعدي أن سيُريده عنه القريب والبعيد، وإني لأُقاتل الناس عن نفسي قتالا! ولو علمت أن أحدا من الناس أقوى على هذا الأمر مني لكنت أن أُقدَّم فيضرب عنقي أحب إليَّ من أن أتولاه...

وقال عمر للناس يوما: «أنا أخبركم بما أستحل من مال المسلمين! يحلّ لي حُلّتان، حُلّة في الشتاء وحُلّة في القيظ، وما أحجّ عليه وأعتمر من الظهر، وقوتي وقوت أهلي كقوت رجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم.. ثم أنا بعدُ رجل من المسلمين يصيبني ما أصابهم».

ورووا أن الربيع بن زيادة الحارثي وَفَدَ على عمر بن الخطاب فأنس إليه عمر وأعجبته هيئته، فشكا إليه عمر طعاما غليظا أكله فقال الربيع: يا أمير المؤمنين، إن أحق الناس بطعام ليّن وملبس ليّن لأنت، فرفع عمر جريدة معه فضرب بها رأسه، وقال أما والله ما أراك أردت الله بمقالتك، ما أردت إلا مقاربتي! ويحك، هل تدري ما مثلي ومثل هؤلاء - جماهير الناس -؟.

فقال الربيع: ما مثلك ومثلهم؟ قال عمر: مَثَل قوم سافروا فدفعوا نفقاتهم إلى رجل منهم وقالوا له: أنفق علينا! فهل يحلّ له أن يستأثر منها بشيء؟ قال: لا يا أمير المؤمنين قال: فكذلك مثلي ومثلهم..

ثم قال عمر: إني لم أستعمل عليكم عمّالي ليضربوا أبشاركم(1) وليشتموا أعراضكم، ويأخذوا أموالكم! ولكني استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم.

فمن ظلمه عامله(2) بمظلمة فلا إذن(3) له عليّ ليرفعها إليّ حتى أقصّه (4) منه! فقال عمرو بن العاص: ياأمير المؤمنين أرأيت إن أدّب أمير رجلا من رعيته أتُقِصُّه منه؟ فقال عمر: وما لي لا أُقِصُّهُ منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يُقِصّ من نفسه؟ وكتب عمر إلى أمراء الأجناد: لا تضربوا المسلمين فتذلّوهم! ولا تحرموهم(5) فتكفّروهم! ولا تجمّروهم(6) فتفتنوهم، ولا تنزلوهم الغياض(7) فتضيعوهم!.

تلك علاقة الشعوب بحكامها في تعاليم الإسلام، وقد نكبت الجماهير في أقطار عدة برجال مترفين استباحوا الضعفاء، وأذلوا من أعز الله، وأعزوا من أذلّ الله، فقامت عليهم ثورات مُحْنَقة ركب مَوْجَتَها شبانٌ مغامرون باسم الاشتراكية التي تنصف الشعوب وتحقق العدالة الاجتماعية، فماذا كان؟.

دخلت الشعوب في محن متتابعة أفقدتها دينها ودنياها معاً، وأنزلت بها هزائم عسكرية وسياسية كست الوجوه بالقار والعار!.

رفع أولئك المغامرون شعار العروبة بعد تجريدها من الإسلام، واتباعها المذاهب المغيرة على بلادنا من الشرق الشيوعي أو الغرب الصليبي، وأُكْرِهَتْ الجماهيرُ إكراها على قبول الشعار الجديد

---

(1) جلودكم (2) رئيسه أو أميره (3) يجيئني توًا ليبلغني شكواه.

(4) أقصّي بضم الهمزة وتشديد الصاد آخذ له الحق من الذي اعتدى عليه.

(5) تحيعوهم، وتنغصوا عيشهم.

(6) لا تجعلوا الجنود يبتعدون عن نسائهم مدة طويلة في ميادين القتال فإن ذلك يغريهم باقتراف الفواحش!.

(7) وقد أثبت هذا النص في كتابي «الاسلام والاوضاع الاقتصادية» في سياق مهم.

وكان بالقادة الجدد جوعٌ شديد إلى الظهور والعظمة، كما كان بهم جوع إلى الرفاهة والبذخ فإذا قصورهم تترع بالملذات وأهلوهم يمرحون في فنون من الوجاهات والمتع..

ولما كانوا خالين من المواهب الرفيعة والتجارب المفيدة، فقد أساءوا النقل والاقتباس، وزعموا أنهم سوف ينهضون بالبلاد صناعيا، فأضاعوها زراعيا وصناعيا..

وكانت نتائج انقطاعهم عن الله، وجهالتهم بالحياة، أن خذلتهم قوانين الأرض وبركات السماء، فإذا العرب والمسلمون يقعون في ورطات رهيبة وتجتاحهم هزائم مُذِّلة في كل ساحة.

وما عسى أن يفعل القدر لرجل يخطب في الحشود المسوقة اليه فيقول وهو يعبث بين أصابعه بقلم: ماذا فعل محمد للناس؟ محمد (!) هكذا يُذكر صاحبُ الرسالة العظمى (!) وتصورت مَعْزَة خرجت من مربضها لتقول للشمس: اغربي إنك ما تصنعين للكون شيئا... !!.

وزعيم آخر نسي كل النسيان أنه كان في طفولته يجري وراء جحاش القرية ثم صيرته الاشتراكية زعيما فإذا هو لا يمتطي في تنقلاته إلا الطائرات السَّمْتية كِبْرا عن أعظم السيارات.

وآخر، وآخر... ما أكثر الأصفار التي ظنت نفسها ألوفا في أرض الإسلام اليتيم!.

والجماهير تنظر في بلاهة، وقد حبسها في موقفها السلبي حب الدنيا وكراهية الموت وإرخاص الحق وعشق الشهوات...

إن رسالتنا الكبرى قاعدتُها أمة مؤمنة بها حريصة عليها وأداتها الأولى جهاز الحكم فيها وقد تكون الأداة قاصرة، أياما أو شهورا! أما أن تكون الأداة مضادة لرسالة الأمة منسلخة عن وحيها، والأمة نفسها لا تعي ولا تتحرك، فالأمر يتصل بالقاعدة نفسها...! والإصلاح الأول لا يتجه إلا إليها...

من أجل ذلك أهيب بالاسلاميين أولي الغيرة على دينهم ألا يضيعوا وقتا في جدال، وألا ينخدعوا عن فساد الموضوع بفساد الشكل، وأن يتجهوا إلى أمتهم ذاتها يعالجون عشرات العلل الكامنة والوافدة التي تنخر في كيانها وتباعدها عن كتاب ربها وسنة نبيها.

إن الحالمين بانقلاب عسكري يجب أن يستقيظوا وإلا كانوا هم أنفسهم قسما من المرضى!.

لقد تدبرت أحوال دول ما تزال تعبد الأصنام فوجدتها وصلت إلى حد الاكتفاء الزراعي، وقفزت إلى الصناعات الألكترونية، وفجرت القنبلة الذرية، واستقرت فيها الأنظمة الديمقراطية، ورجعت البصر إلى أمتي فوجدتها دون ذلك كله، فازداد حسّي بخطورة ما انتهينا إليه!.

بل لقد تأكد لدي أن الحضارة الغربية - بشقيها المتنافرين - قد تبقي عصراً آخر لا يعلم الا الله مداه، ما بقي المسلمون رسميا وشعبيا على هذا المستوى من الإسفاف في نواحي حياتهم الفردية والاجتماعية..! لأنهم لن يصلحوا بديلا لوراثة الأرض!.

إن الدين كما درسته في كتاب ربي إيمان وإصلاح لا نفاق وإفساد! ألا تقرأ قوله تعالى **﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كذبوا بآياتنا يمسّهم العذاب بما كانوا يفسقون﴾**(١).

ما أحلى شعار الحكم بما أنزل الله..

هل تحكم بما أنزل الله في نفسك؟ وفي بيتك؟، وبين جيرانك وإخوانك؟ وفي عملك..؟.

لقد تقلبت بين طوائف كثيفة، وبلوت الكبار والصغار، فشعرت أن الناس عندما يتخلّوْن عن مشاعر الحب والرحمة، وتستبدّ بهم نوازع الأثرة والتكاثر، يتحولون إلى وحوش مرهوبة الفتك!.

---

(١) الآيتان: ٤٨، ٤٩ من سورة الأنعام.

أين كلمة الرسول: «لن تؤمنوا حتى تحابّوا..»؟ إن فقدانها لا يسدُّ مسدَّهُ شيء، وشرائع الحدود والقصاص ما منها بُد! بيد أنها لا تغني أبدا عن شرائع الأخلاق وتقاليد الحنان والأدب والرفق..

والحكومات تستبعد من عالم القانون نصوصا دينية لا ريب فيها، لأن الصليبية والشيوعية قررتا إماتة هذه النصوص، وسوف تعترضان محاولات بعث الحياة في هذا التراث..!!.

حسنا، فهل يتحقق الاسلام عندما يطبق المسؤولون في العالم الاسلامي هذه الشرائع؟ إن الذين جاءوا بطريق غير إسلامي لن يحسنوا الحكم بما أنزل الله! والذي سرق منصبه بطريق التزوير أو الاغتصاب لن ينصف الإسلام يوم يقطع يد لص صغير، كل ما حدث أن اللص الكبير قطع يد لص ضعيف..

الإسلام كلٌّ لا يغني بعضه عن بعض، والحكومة فيه إفراز طبيعي لأمة مؤمنة، أمة اختارت الأكفأ والأصلح، وائتمنته على دينها ودنياها، ووضعته تحت رقابتها، ولها حق مطلق في تنحيته يوم تشاء..!.

الشعوب الطبيعية عرفت ذلك ونفذته، فنفذت جزءا من منطق الفطرة، أعني منطق الاسلام، وهل الإسلام إلا الفطرة السليمة؟.

إن غيرنا أقرب إلى تعاليم الإسلام في مجال الحكم، وإن كان بعيدا عنه في مجال الاعتقاد!.

يعلم الناس أن مستر «تشرشل» هو بطل انجلترا وكاسب النصر لها في الحرب العالمية الثانية، وحقه على قومه كبير، لكن قومه رأوا غيره أقدر منه في أيام السلام وأجدر بالوزارة فأبعدوه دون حرج، وذهب الرجل إلى بيته دون ضجة..

وكذلك جنرال «ديغول» الذي مسح العار عن وطنه في أيام

كالحات، وقاد في المنفي حرب مقاومة انتهت بالنصر! لقد قال له الفرنسيون يوما: جنرال لُمَّ ورقك واترك منصبك، فكان الرجل أسرع من البرق في جمع أوراقه والانطلاق إلى قريته.

ولو فكر أحدهما في الخروج على مشيئة أمته لما وجد خادما يقدم له الطعام، بل ما وجد من يبيعه الخبز، ذاك لو بقي حيا!.

أما في البلاد التي يعيش فيها مليار عربي ومسلم فللوثنية السياسية منطق آخر.

يقول القائد اليهودي «مردخاي»: «إن النصر الذي تم لنا في حرب الأيام الستة فاق أشد الأحلام جنونا» وهذا حق، فقد كسب اليهود أرضا ومالا وجاها تتجاوز الخيال دون خسائر تذكر، لم تكن حربا هذه الرواية التي وقعت! إن القادة العرب قدموا جنودهم لجزار لا تكل يداه من الذبح، وعندما تعب من التنكيل بخصمه ساق البقية أسرى!!.

ثم ماذا؟ رجع القادة المدحورون المعصوبون بالخزي يقولون في وقاحة لم يعرف التاريخ لها نظيرا: هذه نكسة! المهم أننا نحن بقينا..!.

ثم ماذا أيضا؟ انتظروا من الجماهير أن تهتف بأسمائهم وأن تقدم لذواتهم المصونة الولاء..!.

وتم لهم ما انتظروه! قادة النصر في الغرب تستبدل بهم شعوبهم من تراه أفضل لها، وقادة الهزيمة هنا يبقون جاثمين على صدر الأمة حتى يوردوها القبور...

ولا أزال أستغرب الصمت الذي يحف قتل عشرات الألوف من المسلمين في حماة ثم في طرابلس – لبنان.

لئن كان القتل جريمة شنعاء إن هذا الصمت الجبان جريمة أشنع، لكن هذه نتائج الموت الأدبيّ.. ومازلت أؤكد أن العمل الصعب هو تغيير الشعوب، أما تغيير الحكومات فإنه يقع تلقائيا عندما تريد الشعوب ذلك..!.

إن علل أمتنا غليظة، وإذا لم ينشغل دعاة الإصلاح بعلاجها فبم يشتغلون؟

هناك تقاليد انحدرت إلينا من ماض طويل، ما أنزل الله بها من سلطان، ثم جاءنا الاستعمار العسكري والثقافى بتقاليد أخرى هي من مباذل الغرب وهَناته، ربما كان محصّنا ضدها أو قليل التشكّي منها، لكنها لما جاءتنا كانت بالغة الضرر..

هذه التقاليد وتلك، اعوجّت بفكرنا وسلوكنا على سواء، وأكاد أقول: إننا بهذا الاعوجاج نشبه بني إسرائيل قبل أن يُعاقبوا بأيام التيه! أو نشبههم عندما تمردوا على الوحي، ولُعنوا على لسان داود وعيسى بن مريم..

وما خلت الأمة على تطاول القرون من مذكر بالحق وداعٍ إلى الخير! والذي ألفت النظر إليه أن التغيير الحاسم لا يتم ارتجالا، ولا يتم بين عشية وضحاها، ويجب أن يتجرد له رجال لا يخافون في الله لومة لائم، ولا تخلع قلوبهم رهبة أو رغبة، يمشون في الطريق الطويل الذي سار فيه الأنبياء، ولا يفكرون في انقلابات عسكرية أو ثورات مسلحة، إنما يفكرون في الإصلاح المتأني، والتغيير الذي جزم القرآن الكريم بنتائجه عندما قال ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾(١).

وهناك من يطلب السلطة لتكون بين يديه أداة التغيير المنشود!.

وأكره أن أتهم نية هؤلاء أو نهجهم، فقد عشت معهم ومازلت بينهم، ووجهة هؤلاء الرجال أن الحكم في أرض الإسلام منحرف من زمان بعيد، وهم يتساءلون: ما الشرعية التي يعتمد عليها هذا الحكم؟ الحكومات المدنية تستند في مشروعية بقائها على أنها تمثل الشعب، والحكومات الدينية تستند إلى أنها تطبق الدين .

---

(١) الآية: ١١ من سورة الرعد.

فإذا لم يكن ثمَّ تمثيل للشعب ولا تحكيم للدين فأين مشروعية البقاء؟ والنزاع الدمويّ الطويل الذي شجر بين الفريقين يرجع إلى التنافر الحقيقي بين الأمر الواقع وطلاب التغيير!.

وأنا أدعو هنا إلى سياسة جديدة في خدمة الإسلام، وبناء أمته التي تتواثب حولها شياطين الإنس والجن تريد تكفينها والخلاص منها.

ودعوتي أساسها الاستفادة من التجارب الطويلة، والنظر الدقيق في الأسلوب الذي سار عليه رسل الله، وخاتمهم العظيم محمد بن عبد الله، الذي دعا إلى الحق، وتنزه عن كل مأرب، وأمَّنَ أهل الدنيا على ما بأيديهم **﴿قل: ما سألتكم من أجر فهو لكم، إنْ أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد﴾**[1].

وقد لاحظت في أثناء الصراع القاسي بين الإسلاميين وغيرهم من الحكام، أن أغلب الذين يملكون الأمور يمضون مع تيار السلطة وينغمسون في عبابه انغماس السمك في الماء!.

أي أنهم يحسّونَ أن الخروج منه انتقال إلى الموت، فهم يدفعون عن حياتهم، ويرون من يحاول استلاب السلطة منهم قاتلا، يجب الإجهاز عليه قبل أن يجهز عليهم!.

وشيء ثان أن ظنهم سيء بالاسلاميين، فهم لا يرونهم أصحاب مبادىء بل أصحاب مطامع، وأن مغانم الحكم هي التي تحركهم، فلماذا تترك لهم؟.

والشيء الثالث الخطير أن بعضهم يجهل الإسلام جهلا بسيطا أو مركبا بل لقد رأيت في سياحاتي بالعالم الإسلامي من يكره الصلاة والعفاف أكثر من كره الشيوعيين والصليبيين لهما..!!.

ويفرض هذا كله على الدعاة التجرّد التام وهم يرفعون راية الإسلام، وأن يعلنوا بقوة عزوفهم عن الحكم ورفضهم لمناصبه، وإيثارهم أن يقوم غيرهم بتهمة التطبيق والتنفيذ وتأييدهم القوي لمن يسارع من الحكام إلى العمل بالإسلام..

---

(١) الآية: ٤٧ من سورة سبأ.

وليست مهمة الدعاة تلمُّس الأخطاء وكشف أصحابها، ولا أن نتحوَّل إلى نقاد سياسيين يشغلنا الهجاء عن البناء.

الذي أراه أن نكدح في الميادين الداخلية لنعيد بناء أمة توشك أن تتحول إلى أنقاض، وما أكثر هذه الميادين وأفقرها إلى العاملين..

إننا لو انتصرنا فيها ربحنا تسعة أعشار المعركة.

وكل عمل مقرون بالجهل أو الغلو يصيب الإسلام في مقاتله، ويجعل صاحبه - من حيث لا يدري - عونا لخصوم هذا الدين..

قد تقول: إن السلطات القائمة سوف تمنعنا من هذا العمل! فماذا ترى؟

وأقول: إن الأنبياء مُنعوا من قبل عن أداء رسالتهم لكنهم مضوا في الطريق الطويل يتحملون التكذيب والتعويق ﴿**ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذِّبوا، وأوذوا حتى أتاهم نصرنا، ولا مبدِّل لكلمات الله**﴾[1] مضوا يبنون ولا يهدمون ويحسنون ولا يسيئون، مضوا في طريق التوعية والتربية والتبصير بالآخرة والاشراف على الحياة الدنيا من مستواهم العالي، لا يزاحمون عليها، ولا يُظَنُّ بهم طمع فيها، حتى تخيرَّ الله لهم مكان النصر وزمانه، وكان ما قدّر الله!!.

عاش من عاش محققا رسالته، ومات من مات مُوَطِّدًا عند الله مكانته.

لقد سمعت شبابا يشكو طول هذا الطريق، ويهز رأسه رافضا، إنه يريد معركة سريعة!.

إن ريبتي شديدة في قلوب هؤلاء أو في عقولهم، وأدعو الله أن يقي الإسلام شرهم.

---

(١) الآية: ٣٤ من سورة الأنعام.

الأبعاد الإنسانية لخطاب الرسول في حجة الوداع

الأبعاد الإنسانية لخطاب الرسول في حجة الوداع

عندما أصلي على محمد أشعر بأنني أزجي الثناء الحسن لمن يستحقه، وأنّوه بالعبودية الصادقة لمن عاش حياته يرضي ربه ويجاهد في سبيله! وأسأل ربي أن يتقبل صاحب هذه الحياة المباركة ويخلد آثاره، وأن يساعدني على اقتفاء أثره والاقتداء بسنته..

وعندما أسلّم على محمد، وإخوانه المرسلين أقف على أطلال ماضٍ طويل، وتاريخ سحيق كان رسل الله خلاله يكافحون الطواغيت ويخاصمون الجاهليات، وقد سال عرقهم ودمهم وتَغَضَّنَ جبينهم وتنكّد عيشهم، ولكنهم صابروا وتحملوا.. وبعد لأي دارت الرحي على الكافرين فحصدتهم، ونجت العقائد والشرائع ومعالم الوحي الأعلى، وخلصت للأجيال المقبلة كي ينتفعوا بها، ويحصدوا ما غرس الأولون! وقيل بعد هذا العراك المرير **﴿الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى..﴾**[1] وقيل أيضا **﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين﴾**[2].

إنني عندما أصلي وأسلم على محمد، أصل نفسي بأشرف ما في الوجود، وأثبت خطوي على الصراط المستقيم، وأرتضي قيادة تحتضن الحق وتؤثر الرشد، وأعلن أن هَوَايَ مع ما جاء به.

---

(١) الآية: ٥٩ من سورة النمل.

(٢) الآية: ١٨٠ – ١٨٢ من سورة الصافات.

إن الصلاة والسلام هنا توكيد منهج وتحمل عبء، ومشاركة قلبية وفكرية للانسان الذي حرر الإيمان من الخرافة، ونقّى الحق من الشوائب، وربط الفطرة السليمة بالوحي، وصالح بين العقل والدين، وجعل الدنيا مهادا صالحا للأخرى..

إن محمداً ليس بشرا عاديا.. إذا كان الناس أجمعون قد خلقوا للعبادة، فإن محمدا كان النموذج الأكمل للعبودية المستكينة العانية المستسلمة لجلال الله، وإذا كانوا قد خُلقوا ليظهر أيُّهم أحسن عملا، فإن محمداً حلّق بسيرته في مستوى ترنو إليه الفلاسفة والأبطال والقادة العظام ثم يتمنون لو أدركوا غباره، ونضح عليهم سنا منه.. نعم ليس محمد بشرا عاديا، وقد درست حياة رؤساء وساسة ومفكرين ورجال سلام ورجال حروب، وأناسا واتتهم الحظوظ فبرزوا، وآخرين كبت بهم الحظوظ ففشلوا.. وأُبْتُ بعد هذه الدراسة وأنا أحمل في نفسي تقديرا خاصا لمحمد النبي الإنسان، النبي المربي، النبيِّ الذي أصلح أخطاء القرون، وردَّ للعالم عقله الغائب، وكثيرا ما أودع تقديري ذاك في الصيغة التي أُمرنا بترديدها صيغة الصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله.

استصحبت هذه العاطفة وأنا أطالع الصحائف الأخيرة من السيرة الناضرة وأتابع الكلمات التي قيلت في حجة الوداع، إن الخطبة التي ألقيت في هذه الحجة لا تستغرق بضع دقائق ولكنها أهم من خطاب يستغرق بضع ساعات، ولا عجب فصاحبها أوتي جوامع الكلم، واختصرت المعاني له اختصارا، والأنبياء ليسوا تجار كلام ولا عارضي أساليب، وإن اللغة على ألسنتهم قوالبُ للحق، وأوعية للمعاني، وشفاء لما في الصدور، وذاك حسبهم من الأداء...

وليس في خطبة الوداع شرائع جديدة، إنها ترديد لأحكام سبقت، أو تطبيق لأصول تقدمت، أو تلخيص لما استفاض شرحه، والمراد تذكير الناس عامة بما قد يحاول الشيطان زحزحتهم عنه أو تنسيتهم إياه..

وكان الرسول ﷺ يشعر بأنه قارب النهاية، وأن الأمة التي أنشأها قد

تشبثت بظهر الأرض وفرضت نفسها على التاريخ، وانتقل الأذان مع الرياح الأربع، وتوزعت جماعات الصلاة على أطراف الزمان، فهي تلتقي على طاعة الله قبل طلوع الشمس وقبل الغروب .. ماذا بقي له؟ لا يريد لنفسه شيئا، صحيح أنه مرسل للعالمين، ليكن، فهؤلاء الذين ربَّاهم سيمدون النور إلى ما بقي من أرض الله، إن الجيل الذي ربَّاه جزء من الرسالة التي أدَّاها...

من أجل ذلك كان يحدِّث وفي الوقت نفسه كان يودِّع، وفي تضاعيف حديثه كان يفرغ كل ما في فؤاده من نصح وحب وإخلاص

والعرب قبل غيرهم من الناس أجدر أهل الأرض أن يعوا هذه الوصايا، فإن النبيَّ الخاتم عانى معاناة طويلة وهو يخرجهم من الظلمات إلى النور، ويبرئهم من علل يكاد يكون الشفاء منها مستحيلا، وعندما صنع منهم بالإسلام أمة جديدة أراد أن تكون هذه الأمة عنوانا عظيما على حقيقة عظيمة، أى أن دعايتها للإسلام ليست نشرات مكتوبة توزعها وزارة السياحة، أو خطبا تعتمد على إحصاءات مكذوبة، أو أنباء مختلقة .. لا. لا. إن جمال عملها بالإسلام، وصدق بلاغها عنه هو الذي يصنع لها القبول ويجمع حولها الأنصار.

إن النبي عليه الصلاة والسلام يعرف العرب معرفة جيدة، ويعرف أغوار الفُرقة والخصام في أفئدتهم، ويريد إشعارهم بالنعمة التي أفاءها الله عليهم، ولذلك يقول لهم في هذه الحجة (حجة الوداع): «ويحكم أو ويلكم!! انظروا لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض» !!.

ما أغلى هذه الوصية، وما أبعد مداها في التاريخ لقوم يعقلون .. على أن العلاج النبوي ليس لطيش الغرائز عند جنس بعينه، إنه لأجناس الخلق كلهم، والأمر كما قلنا في مكان آخر: إن الله رَبَّى محمداً ليربي به العرب، وربَّي العرب بمحمد لِيربِّيَ بهم الناس أجمعين ﴿**وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس**﴾(١)

---

(١) الآية: ٧٨ من سورة الحج.

ومن ثم جاء في آخر الخطاب النبوي «ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعلّ بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه».

وقد دخل في دين الله بعد ذلك ألوف وألوف كانوا على اختلاف الألسنة والوجوه أوعى وأقدر، ولا يزال المدّ متصلا إلى قيام الساعة.

ونعرض الآن للمبادىء الرئيسية في هذه الخطبة الجليلة وفق ترتيب اخترناه يناسب عصرنا.

١ – الإنسانية متساوية القيمة في أي إهاب تبرز، لا يفرق بينها سواد أو بياض، لا يفاوت بينها نسب إفريقي أو أوربِّي، فالنزاعات العنصرية، والنعرات الوطنية ضرب من الدجل والإفك!.

ومن ذكر الواقع الرديء أن نَصِفَ الحضارة الحديثة بأنها حضارة القوميات والألوان، وأن شعوب أوربا وأمريكا تضمر في نفسها احتقاراً لأبناءِ القارات الأخرى، ومهما غطت هذا الشعور فهو ينفس بقوة في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولم تُفلح المواثيق النظرية في كسر شره..

وقد نبه النبي ﷺ إلى ضلال هذا المسلك في خطبة الوداع بقوله: «أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال «اللهم اشهد»».

٢ – ولكسب المال قصة عميقة المجرى في تاريخ البشر، وقد راقبتُ الأنظمة المتضادة وهي تحاول توفير الطمأنينة بين الناس، راقبت نظام التحكير ونظام التسعير، نظام إطلاق الملكية وتقييدها، نظام سيطرة الفرد وسيطرة الشعب، فوجدت أن النفس تدور حول أثرتها، ولا تبالي بشيء في سبيل غايتها..

وما لم يكن هناك إيمان بالله فإن قوانين الأرض مسرح للعبث والتظالم، من أجل ذلك يقول الرسول في هذه الخطبة «أيها الناس، إنما

المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه» لكن هذه الإشارة المجملة لا تغني عن إيضاح أوسع يحسم مادة التظالم بين الناس في شؤون الحياة كلها، فلنستمع إلى هذا التوجيه المثير

٣ – أيها الناس أتدرون في أي شهر أنتم، وفي أي يوم أنتم، وفي أي بلد أنتم؟ قالوا: في يوم حرام، وشهر حرام، وبلد حرام! قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم.. ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم قال: اللهم اشهد!.

لكن بعض الجبارين، حكاما كانوا أم محكومين، تحملهم قوتهم على اجتياح الضعفاء، ونكبتهم في حقوقهم المادية والأدبية، وقد اشتعلت ثورات هائلة للثأر من الظلمة، ووقعت حمّامات دم، لم يكن القصاص فيها من الظلمة بقدر ما كان من ذراريهم وحواشيهم، ثم اتسع الخرق فهلكت ألوف مؤلفة من الأبرياء، وقامت حكومات جديدة ونشأت أنظمة أخرى، وتكررت المأساة نفسها حتى لكأن التاريخ سلسلة من المظالم مَنْ يفرّ فيها من الجناة أضعاف من تحيط بهم خطاياهم، وسوف يبقى الأمر كذلك حتى نعي قول الرسول في هذه الخطبة «إنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم»..

٤ – وكان الربا قديما رذيلة ساذجة، أساسها إمهال المعسر بثمن يسير أو فاحش، ثم أمسى في المؤسسات العالمية رذيلة معقدة مدروسة تطيح فيها شعوب وجماعات، الدولة الفقيرة الآن تريد بناء مرفق هي في حاجة إليه، فتقترض المال المطلوب من دولة غنية، ثم تأخذه على شرط شراء مواد البناء من الدولة المقرضة، وجعل الجهاز العامل من أبناء هذه الدولة! وبعد أن تحدد سعر الفائدة الربوبة كما تشاء، تحدد أجور الموظفين من بينها، وأسعار المواد التي تقدمها، وتصرف القرض مائة ليعود إليها عدة مئات..

وجمهرة الدول الفقيرة الآن معرضة للإفلاس من جراء هذه السياسة الجشعة، وهي تترنح تحت وطأة الوفاء بما يبهظ كاهلها أو يقصم ظهرها..

ووددت لو تبنَّتْ الدول كلها مبدأ تحريم الربا، وتقرير مصاريف إدارية معقولة للصناديق أو المصارف التي تشتغل بالإقراض هكذا علّم النبي البشريّة من خمسة عشر قرنا عندما قال «... ألا وإن كل ربا في الجاهلية موضوع، وإن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظْلَمُون، قضي الله ألّا ربا، وإن أول ربا أبدأ به – أسقطه – ربا عمي العباس بن عبد المطلب» – وكان من كبار التجار المتعاملين بالربا.

وقد رأيت أن تحريم الربا لا يستريح له إلا من خشي ربه، وقد قال بشناعة الربا كارل ماركس فهل نفذ التحريم من حكم باسمه من الشيوعيين؟ كان الروس يبيعون السلاح للدول التابعة لهم بأغلى الأسعار، ثم يتقاضون الثمن المؤجل مضافا إليه ربا فاحش!.

إن الحضارة المادية التي تقود العالم لا تعرف إلا اليوم الحاضر والربح العاجل، أما قوله تعالى ﴿**وإن كان ذو عسرة فَنَظِرة إلى ميسرة، وأن تصدّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾[1] فحديث خرافة عندهم!.

٥ – وصيانة الدماء قضية خطيرة وعندما كتب الله القصاص في القتل والجراحات، كان يريد زجر المجرمين عن العدوان، وعندما يعلم امرؤ أنه لاق حتما المصير الذي يوقعه بغيره سيتردد طويلا في قتل هذا أو جرح ذاك... وإذا غلبه الطيش فاعتدى فإن منظره مقتولا أو معاقبا سيوقع الرهبة في قلوب الآخرين، وقد قيل: القتل أنفى للقتل، وقال الله تعالى ﴿في القصاص حياة﴾[2].

---

(١) الآية: ٢٨٠ من سورة البقرة (٢) الآية: ١٧٩ من سورة البقرة.

وأغلب الدول العظمى الآن ألغت القصاص! واكتفت بعقوبات تافهة لم تُجْدِ في حماية المجتمع، وأصابتنا حُمَّى التقليد، فشاعت بيننا الجرائم، وانشغل المظلومون بطلب الثأر لمن ينتمي اليهم أو ينتمون له.

وقد حسم الإسلام هذه الفوضى، بشرائعه العادلة، ويجب علينا إسدال ستارة سميكة على الانحرافات التي سادت العالم لتبدأ بعدها صفحة جديدة من تطبيق الأحكام السماوية.

ولا كرامة لباطل كما قال رسول الله في هذه الخطبة الجامعة «ألا وإن كل دم ومال ومأثرة كانت في الجاهلية، تحت قدمي هذه، وإن أول دم يوضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب» – قتله الهذليون في الجاهلية وكان بين ظهرانيهم – وأراد النبي الكريم أن يفتح العرب بالإسلام صفحة جديدة تجبُّ الماضي، ويبدأ بها عهد جديد.

٦ – وتحدث النبي ﷺ عن حقوق النساء، وهو حديث يحتاج إليه المسلمون المعاصرون، كما يحتاج إليه بقية الناس في المشارق والمغارب، ذلك أن مواريث المسلمين الثقافية مثقلة بتقاليد ما أنزل الله بها من سلطان، كما أن الأوربيين أسفَّت بهم شهواتهم إلى مدى رديء.

كان العرب لا يرون المرأة شيئا ولا يقيمون لها وزنا، بل لعلهم حسبوها شرا لابدَّ منه! وقد لجأ بعضهم إلى قتلها وهي طفلة حسما للمتاعب والمخازي!!.

ولما جاء الاسلام محا هذا المنطق محوا، وبيّن أن النساء شقائق الرجال، وأنهم سواء في تكاليف العقائد والعبادات والأخلاق، وأنهم سواء في استحقاق الثواب والعقاب بما يعانون من جهد في سبيل الله، وأن الزعم بأن الذكورة تقدم صاحبها وأن الأنوثة تؤخر صاحبها لون من الكذب.

وبذلك رفض الاسلام ما كان شائعا بين العرب من ازدراء الأنوثة، وأقام مجتمعه الجديد على قواعد أخرى، وإن كانت الطبيعة العربية فيما بعد تمردّت على هذه القواعد، وكما نزعت إلى التشرذم والعصبيات

والمنافرات وسفك الدم نزعت إلى حصر وظيفة المرأة في شهوتي البطن والفرج، وضنَّت عليها بالوجود في ميدان العلم والتقافة والعبادة والإصلاح ودعوة الخير التي هي الصفة الأولى للأمة الإسلامية ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾(١).

ولا ريب أن وظيفة المرأة في بناء الأسرة خطيرة لا يقبل التفريط فيها، كما أنه لا ريب في أن المجتمع كله مطالب بصيانة الأعراض، ومنع أي عبث بها.

والأمة الراشدة تستطيع التوفيق بين هذه الأهداف جميعا، فلا تضع المرأة في قفص الاتهام بغباوة، ولا تطلقها لتكون مصيدة للآثام، ولا تجور على غيرة الرجل، ولا تهمل حقوق الله.

وقد يخطىء الرجل فيؤاخذه المجتمع، ولا يدع تأديبه، وقد تخطىء المرأة فلا يتركها الدين وإنما يدع أمر تأديبها إلى زوجها لا ليكون جبارا بل ليمنع العوج والنشوز، ويعيد الاستقرار في جوانب البيت..

وفي ذلك يقول الرسول ﷺ في خطبة الوداع «أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقا، وإن لكم عليهن حقا، فعليهن ألا يوطئن فُرُشَكُمْ أحدا، ولا يدخلن بيوتكم أحدا تكرهونه، إلا بإذنكم! فإن فعلن(٢) فإن الله أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وأن تضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف! وإنما النساء عندكم عوانٍ لا يملكن لأنفسهن شيئا، وإنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا!.

ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم! قال: «اللهم اشهد»».

---

(١) الآية: ١٠٤ من سورة آل عمران.

(٢) هذا التوجيه النبويّ يشير إلى العلة التي يقع من أجلها التأديب، ولا ريب أنه مما يغضب الرجل أن يدخل بيته غريب، أو كريه، كما يغضبه أن تترفع المرأة عليه – وهو معنى النشوز – والتأديب المشروع ليس جلد حيوان، وإنما هو إشعار بالحق المنكور.

وعقد الزواج ليس عقد استرقاق ، ولا عقد ارتفاق لجسد المرأة ، إنه أزكى من ذلك وأرقى ، ولم يقل الشارع : إن المرأة إذا ارتكبت خطأ ارتكب الرجل ضدها خطيئة ، والمحزن أن تقاليد المسلمين بعيدة عن دينهم ، وليست قط صورة تشرف الإسلام .

ولا نعتذر بذلك لدنايا الغرب أو نهوّن منها ! وانما نريد إنصاف الشريعة ومحو الغبار الذي أخفى معالمها ، وشرع الله أفضل من أهواء الناس في الشرق أو الغرب .

٧ — وفي حجة الوداع أكد النبي ﷺ حرمة الأشهر الحرام ، وهذا أمر يحتاج إلى بعض البيان ، إن الأمم تحتاج إلى أمكنة وأزمنة يتوفر فيها السلام والهدوء ، وتقلّم فيها أظافر الوحوش الرابضة في دماء البشر ، أمكنة وأزمنة يأمن فيها الانسان على حقوقه المادية والأدبية ، ويثق بأنه لن يجد أذى أو كيدا من عدوّ أو صديق .

وقد ألهم الله ابراهيم ومحمداً عليهما السلام فجعلا مكة والمدينة حرمين آمنين ، كما أنه سبحانه جعل من السنة أربعة شهور تُجمَّد فيها الخصومات حتما وتتوقف الحروب .. وفي عصرنا حاولت بعض الدول أن تجعل نفسها محايدة بين شتى الجبهات ، كما أن هناك محاولات لجعل مناطق من الأرض مجردة من السلاح الذري ، والمحاولات لكفكفة شرور الناس متصلة ! .

بيد أن الأشرار لا يكفّون عن بسط أيديهم بالشر ما استطاعوا ، وفي الجاهلية العربية حاول نفر من الجبابرة إبطال حرمة الشهر الحرام ، لأنه كان راغبا أن يقاتل في هذا الشهر فأفتى نفسه بأن يحلّه ، ويحرّم شهرا آخر مكانه ، ويمكن الإرجاء والتبديل تبعا للهوى .

ولا ريب أن ذلك أضاع مكانة الأشهر الحرم ، ومكّن الأقوياء من العدوان ، كلما تيسر لهم .

ونحن المسلمين نودّ لو يملأ السلام أرجاء الأرض ، ويستغرق أعمار البشر ، وأنّى لنا ذلك ؟ في كل صلاة نهتف من أعماقنا « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » وفي كل صلاة نتلفت يمينا ويسارا لنوزع السلام حوالينا ! .

ومع ذلك لم نفلت من شباك الفتانين والجبارين فخضنا الحروب كارهين مكرهين! ولا نزال كذلك حتى يوم الناس هذا، فماذا نصنع؟.

إن نبينا صلوات الله عليه ناشد الناس أن يستعيدوا حرمة الأشهر الأربعة فلا يظلموا أنفسهم فيها، وعسى أن يكون ذلك ذريعة إلى منع القتال طوال السنة! ونحن نستأنف هذه المناشدة! بيد أننا نرفض أن تُستغلّ ضدنا، فسوف نقاتل يقينا إذا اعتُدي علينا في أي شهْر أو إذا استجمَّ العدّو خلالها وأعدّ عُدَّته للهجوم متربّصا بنا السوء!.

إننا نعرض على العرب وغير العرب احترام الشهور لتتنفس فيها الإنسانية بهدوء.

قال عليه الصلاة والسلام: «أيها الناس إنما النسيء زيادة في الكفر، يُضَلُّ به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرَّم الله» - والنسيء كما أشرنا آنفا - إرجاء حرمة الشهر إلى شهر آخر حسب الهوى، وقد ظلوا يفعلون ذلك حتى رجع الشهر المستباح إلى وضعه الطبيعي فقال النبي الكريم: «ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية وواحد فرد، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم، ولا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم قال: اللهم اشهد.

٨ - بديه أن يكون النبي ﷺ حريصا على مستقبل أمته، كارها أن يصيبها ما أصاب الأمم الأولى من زيغ وغضب! والحق يخاف عليه من ناحيتين كلتاهما شر من صاحبتها!.

الأولى: غارة همجية تدك قواعده وتمحو معالمه، وهذه تجيء من الخارج والأعداء كثيرون.

والأخرى: فوضى علمية وعملية تجعل الغلوّ يغلب القصْد، والعوج يغلب الاستقامة، فإذا وجْهُ الحقيقة دميم، وباطنها سقيم.. وهذه تجيء من الداخل، وخلل الأديان القديمة أتى منها، والمغالون والمنحرفون قد يكونون شرا من العاصين والفاجرين..

وقد هوجم الإسلام من الداخل والخارج على سواء، وحاولت الشياطين أن تطفيء نوره، ولكن الله كتب له الحفظ وضمن لأصوله الخلود..

ونحن في هذا العصر نشكو جراءة العدوّ وطول يده في نهبنا، وغلظ طبعه في إهانتنا، وعند التأمل العميق نرى المسلمين قد لحقتهم مغارم فادحة، وسقط لهم قتلى وجرحى كثيرون، أما المفقودون الذين تاهوا هنا وهناك ففوق الحصر!!.

ومع شناعة الغزو الخارجي، فإن فوضانا الداخلية كانت أنكى، وسمعة الإسلام العالمية تحرج الصدور، حتى كتب بعض أعداء الاسلام عن التفرقة العنصرية في الإسلام (!) كيف شرعها وقررها، وحتى عُرف أن الإسلام يرجح جانب الفرد المستبد على رأي الأمة (!) وأن الإسلام صديق الفقر والتخلّف، وأنه عدوّ المرأة، وأن المال في مجتمعه دُولة بين الأغنياء (!) ومناكر كثيرة حاربها الاسلام منذ ظهر اعتبرت من تعاليمه.

والفوضى الداخلية عندنا هي المسؤولة عن هذا البلاء، وأعتقد أنها سبب الاستعمار الذي أذل جانبنا.

ومع سوء الفقه وسوء الحكم خارت قوى المسلمين وذهبت ريحهم! ثم تطلعت الأخلاف بعيدا فرأت بريق التقدم يتخلل أقطارا أخرى لها فلسفات متبرجة ودعاوى ضخمة!!.

فظن المظلومون أن العدالة هنالك، وظنّ الفقراء والمحرومون أنهم واجدو النعمة والكرامة في مذاهب القوم ومسالكهم..

بل ظن أصحاب البلاهة والجهل أن الاسلام كان السبب فيما عرا البلاد من تقهقر، وخير لهم أن يستبدلوا به المبادىء التي خلبتهم..

وراجت سوق العلمانية والشيوعية والديمقراطية، وهي مذاهب سدّت نقصا ملحوظا عندما ظهرت، لأنها ظهرت في بيئات كان الخصام فيها شديدا بين العلم والدين والعدل الاجتماعي والنظام الطبقي، وبين حقوق الشعوب والحق الآلهي للملوك!.

إلا أنها مذاهب قرنت بكل خير قدمته شرا يساويه أو يربو عليه، فإذا العالم مملوء بالإلحاد والفساد والأثرة، وانضم إلى ذلك شيء آخر مثير للعجب، إن الأديان الأرضية والسماوية جميعا لبست هذه المذاهب الجديدة على ضغائنها وخرافاتها القديمة، واشتبكت مع الإسلام تريد محوه والعيش على أنقاضه، فعلت ذلك الوثنية واليهودية والنصرانية دون حياء، والحرب الآن على قدم وساق في الشرق الأقصى والأوسط وفي إفريقية وجنوب أوربا..

وبابا الفاتيكان وغيره يقومون برحلات وسياحات متتابعة للإجهاز على الدين الجريح..

بل إن الشيوعية – والمفروض أنها ذات صبغة عالمية – كشفت عن أنها حركة تخدم القومية الروسية أو الصينية، وتؤسس استعمارا من لون جديد وتعرّض للفناء ثمانين مليونا من المسلمين، وتعمل على محو شخصيتهم، وإفناء عقيدتهم...

إنني أحذّر أمتي الكبرى من فناء ذريع يجتاحها مع هذا الاسترسال في الغفلة، والجهل بما يحاك ضدها من مؤامرات، وعجزها الشائن عن رد عدوّ يوشك أن يأتي عليها من القواعد.

ولتعلم أمتنا، أن الحل الأول هو الحل الأخير، وأن التعاليم التي صنعتها قديما هي التي تصوننا الآن، وأن التفريط في الإسلام محو لكينونتنا قال عليه الصلاة والسلام «أيها الناس، إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرونه من أعمالكم، فاحذروه على دينكم، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا، أمرا بيّنا: كتاب الله وسنة نبيه، وإنكم

ستُسألون عني! فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت! فجعل يشير بإصبعه السبابة إلى السماء، ثم إلى الناس وهو يقول: اللهم اشهد اللهم اشهد».

هذه هي المعاني التي شاء الرسول أن يؤكدها في حجته الأخيرة بالناس وهو يقول: أيها الناس، اسمعوا مني أبين لكم، فإني لا أدري: لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا..!.

والوصايا التي أودعها النبي ﷺ ضمائر الناس لا تتضمن قضايا فلسفية ولا نظرات خيالية، إنها مبادىء سيقت في كلمات سهلة سائغة، لكنها استوعبت جملة الحقائق التي يحتاج اليها العالم ليرشد ويسعد.

وهي على وجازتها أهدى وأجدى من مواثيق عالمية طنانة.

ذلك أن قائلها كان عامر الفؤاد بحب الناس والعطف عليهم، شديد الحرص على ربطهم بالله وإعدادهم للقائه، عميق الشعور بعبء البلاغ الذي أخذه على عاتقه، موقنا بأن الحياة الصحيحة يستحيل أن تتم بعيدا عن الله ووحيه..

وقد نأى المسلمون – في هذا العصر – عن مواريث نبيهم، وإذا كان الشيطان على عهد النبوة قد يئس أن يعبد فى جزيرة العرب.. وإذا كان الإسلام على عهد النبوة قد دفن النعرات الجاهلية والعصبيات الدموية، فإن هذا العصر جدد آمال الشيطان، بل نفخ فيها روح القوة... والعالم الإسلامي اليوم تتوزّعه نحو مائة قومية، وتمشي جماهيره تحت مائة راية...

وبعض هذه القوميات يقبل الإسلام ضيفا عليه – ضيفا فحسب – وبعضها الآخر تبلغ به القحّة أن يَعدّ نفسه بديلا عن الدين...

وقد تفرسنا في هذه القوميات البديلة عن الدين كما يزعم أصحابها، فإذا الدين المزهود فيه هو الإسلام وحده! وإذا القوميات المنتحلة مصيدة استعمارية لطعن الإسلام وحده، والسماح بالمرور لكل دين آخر...

والقوميات الكبيرة تتجول في محيط السياسة العالمية كأنها حيتان فاغرة فاها، تبتلع ما تريد، وقد استطاعت أن تصنع في إفريقية أكثر من خمسين

قومية صغيرة، أقيمت وفق مواصفات خاصة، وأشرف على تخطيط حدودها رجال الكنائس المسيحية، وذلك لتنفيذ خطة الفاتيكان في القضاء على الإسلام وجعل النصرانية الدين الأول في هذه القارة.

والخطة المرسومة تنفّذ بأناة ودهاء، ويتعهدها البابا نفسه بزياراته وبركاته (!)...

وما صنع في إفريقية صنع مثله من قبل في آسيا، فروسيا أنشأت الاتحاد السوفيتي من أربع عشرة قومية، خمس منها إسلامية، قيل لها كي تقف مقاومتها الحربية: إنها لن تضار من الانضمام إلى هذا الاتحاد من الناحية الدينية..

قال الأستاذ أحمد سليمان المحامي في مجلة الفكر الإسلامي السودانية: أصدر لينين منشورا مليئا بالوعود الحسنة للمسلمين، وقعه معه ستالين في ١٥/١٢/١٩١٧ م - إذ كان مسئوولا عن شؤون القوميات - جاء فيه: إن أديانكم وعاداتكم ومعاهدكم العلمية والقومية مصونة من كل اعتداء! نظموا حياتكم القومية تنظيما يستند إلى أسس الحرية والاستقلال، وهذا من حقكم الشرعى (!) واعلموا أننا نحن البلاشفة ندافع عنكم وعن حقوق كل الشعوب التي تعيش في أنحاء روسيا.. إننا برفع علمنا هذا، إنما نعلن للشعوب المستعبدة في روسيا شعار الحرية والاستقلال.. أيها المسلمون، نحن ننتظر منكم معاونتكم المادية والأدبية».

ولكن سرعان ما نكص ستالين عن وعده عندما استتب له الأمر.. وهو بهذا النكوص يكرر ما فعلته من قبل القيصرة كاترين الثانية التي وعدت المسلمين بحمايتهم إذا استكانوا للحكم الروسي، فلما ملكت أمرهم أصدرت في ٨/٤/١٧٨٣م منشورا تعلن فيه دون حياء، بل تعلن فيه وقد أخذتها العزة بالإثم حنثها بوعدها قائلة: «لذلك أراني في حلّ من تعهداتي السابقة بالتخلي عن القرم، وترك شعوبها حرة مستقلة، وأجد من حقي أن أعود فيما أعطيت وأن أضع يدي على هذا الإقليم..».

الواقع أن المسلمين ضياع في روسيا على عهد القياصرة البيض والحمز جميعا، وأنهم يعاملون باستهانة وجفاء، وقد شرحنا ذلك في كتابنا «الإسلام في وجه الزحف الأحمر».

إنه – كما ينقل موظف من بلد إلى بلد – تنقل شعوب بأسرها من قطر إلى قطر! وتبتر بترا علاقاتها بماضيها ومجتمعها وأواصرها الروحية والتاريخية، يكفي أن يضمن لها الأكل، كما يُضمنُ للدواب العلف ثم تظل تكدح إلى أن تهلك!! كذلك فُعِل بالمسلمين.

ويقول الأستاذ أحمد سليمان: إن الأساليب التي اتخذتها كاترين هي، هي التي اتخذها ستالين، الحكام أغلبهم من القومية السلافية، والنفي مصير كل من يرتاب في ولائه، والاعدام يقضى به حتما على كل من يرفع صوته متبرما من ظلم وقع عليه أو على غيره..

وكما فرضت كاترين توطين بعض الطوائف الكارهة للإسلام في أرض الإسلام فعل ستالين، فقد نفى عشرات الألوف من المسلمين إلى سيبيريا واستبدل بهم مهاجرين من قوميات أخرى، وفي أحد الأفواج التي نقلت إلى الأرض الإسلامية بلغ عدد اليهود القادمين خمسة وثلاثين ألفا، وكان بعض البلاشفة من السلالات اليهودية يقولون لابناء جلدتهم: لقد انتقمنا لكم من المسلمين الذين طرد أسلافهم جدودكم عندما كانوا في جزيرة العرب!! وها أنتم أولاء تعيشون وسطهم في أرض الاتحاد السوفيتي العظيم...».

المأساة الكئيبة أن المسلمين يجهلون تاريخهم، وأن العرب خاصة يجهلون أو يجحدون ما صنع الإسلام لهم وكيف رفع خسيستهم!!

إنني أذكرهم بوصايا النبيِّ وهو يودِّعهم، ويدعهم يواجهون الحياة

وحدهم! إنه يقول لهم: لستم وحدكم، معكم كتابي وسنتي! ميراث لا يَعْدِلُه ميراث احذروا التهاون به، فمن فعل ذلك **﴿فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾**[1].

سلام على صاحب الرسالة الخاتمة، مادامت الأرض والسماء، وما قامت بربها الأشياء.

* * * * *

---

(١) من الآية: ٣١ سورة الحج.

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة

رقم الايداع : ٨٧/٧٧٣١
الترقيم الدولى . ٤ - ١٤٤ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
بيروت: ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣